الكتـاب الأول

الفصل الأول

1- أرى أن علم الجغرافيا[1]، الذي عزمت الآن على دراسته، هو مثله مثل كلّ علم آخر، يدخل في دائرة أشغال الفيلسوف. وصحّة رؤيتنا هذه تستند إلى أسس كثيرة[*]. فأوّل الذين تشجّعوا على الاشتغال بهذا العلم كانوا بحسب إيراتوسفين، فلاسفة بمعنى ما: هوميروس، وأناكسيماندرس الميلتوسي، ومواطنه هيكاتيوس، ثمّ تلاهم ديموقريط، وإفدوكس، وديكيارخ، وإيثور، وبعض معاصريهم الآخرين. كما كان خلفاؤهم فلاسفة أيضاً: إيراتوسفين، وبوليبيوس، وبوسيدونيوس. ومن جهة أخرى فإن الضلوع في العلم وحده الذي يعطي إمكانية لدراسة الجغرافيا. والضلوع في العلم، هو حصراً من سمات الإنسان القادر على معالجة الأشياء الإلهية والبشرية على حدّ سواء، فهم يؤكّدون على أن الفلسفة هي معرفة هذه الأشياء. وللجغرافيا منافع متنوّعة، فهي لا تستخدم في أعمال رجال الدولة أو الحكّام وحسب، إنّما تستخدم كذلك في علم الظاهرات السماوية، والظاهرات الأرضية، والبحرية، وظاهرات عالم الحيوان، والنبات، والثمار، وما إلى ذلك مما يمكن أن نصادفه في مختلف البلدان[2]. ومنفعة الجغرافيا تفترض في الجغرافيّ فيلسوفاً أيضاً، أي إنساناً كرّس نفسه لدراسة فنّ العيش، أي السعادة.

2- ولنعالج الآن بتفصيل أكثر كلّ نقطة من النقاط التي طرحناها، وهاأنذا أقول قبل كلّ شيء، إننا وأسلافنا (وكان هيبارخ واحداً منهم)، كنّا على حق عندما قلنا إن هوميروس هو من أسّس علم الجغرافيا. فهوميروس لم يتفوّق على القدماء والمعاصرين كلّهم بسمو قيمة شعره فقط، بل، وكما أرى، بمعرفته شروط الحياة

*- إن الأرقام المدوّنة في الحقول تشير إلى صفحات إصدار كازوبون النقدي (باريس، 1587م)، الذي يقتبسون منه نص «جغرافيا» سترابون عادة.

obeikandi.com

الاجتماعية أيضاً. ولذلك فهو لم يهتم بتصوير الأحداث فقط، إنّما، ولكي يطلع على أكبر قدر ممكن من الحقائق ويروي للأحفاد عنها، سعى لكي يعرّف بجغرافيا بلدان بعينها، كما بجغرافيا المعمورة كلّها، جغرافيا الأرض كما جغرافيا البحر. ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاع أن يبلغ أطراف المعمورة، إذ جابها كلّها في وصفه.

3- لقد أعلن هوميروس بادئ ذي بدء، أن المعمورة محاطة بمياه المحيط من جهاتها كلّها، وهذا هو واقع الحال فعلاً. ثمّ دعا بعض البلدان بأسمائها، وترك لنا فرصة الاستنتاج فيما يتعلّق بالأخرى بعد أن زوّدنا ببعض الإشارات؛ فقد ذكر على سبيل المثال اسم ليبيا، وإثيوبيا، والصيدونيين، والإريمبيين (لقد قصد بهؤلاء الأخيرين إلى العرب الساكني الكهوف) بدقّة ووضوح، بينما ترك وصفاً مبهماً للشعوب التي تقطن أقصى الشرق وتلك التي تقطن أقصى الغرب، إذ قال إن بلدانهم تشاطئ مياه المحيط. لقد صوّر الشمس وهي خارجة من المحيط، ووصفها وهي تغوص فيه؛ وقال الشيء نفسه عن مجموعات النجوم.

الشمس بالكاد تخترق الوادي بأشعتها الفتية،
خارجة من أعماق تموجات المحيط المتهادية

(الإلياذا VII، 421)

في غضون ذلك سقط شعاع الشمس المتألق، في المحيط،
وهبط الليل الحالك.

(الإلياذا VII، 485)

ويعلن أيضاً أن النجوم تشرق من المحيط كذلك، «بعد أن تستحم في أمواج المحيط» (الإلياذا، V، 6).

4- أمّا فيما يخصّ شعوب الغرب، فإنّ هوميروس يشير إلى ازدهارها وإلى أنها عاشت في مناخ معتدل. (من المؤكّد أنه سمع عن غنى إيبيريا، وبسبب ذلك شن هرقل حرباً عليها، ثمّ حذا الفينيقيون حذوه بعد حين، واستولوا في أقدم الأزمنة على شطر كبير من البلاد، ثمّ استولى الرومان عليها فيما بعد). لأنّ نسائم تهبّ على الغرب؛ وهنا وضّع هوميروس سهل الإيليزيه، الذي سوف يرسل الآلهة منيلايوس إليه، بحسب قوله:

إلى خارج حدود الأرض، إلى حقول الإيليزيه سوف
يرسلك الآلهة - إلى هناك حيث يعيش رادامانثوس
الذهبي الشّعر،
حيث تجري وضّاءة من غير كدر، أيام الإنسان،
حيث لا عواصف، ولا شآبيب، ولا صقيع الشتاء،

حيث نسيم المحيط يتهادى لطيفاً، حلواً.

(الأوذيسا IV، 565)

5- وكذلك جزر النعيم تتوضّع إلى الغرب أيضاً، عند أقصى الشطر الغربي من ماوروسيا، وهو شطرها الذي يتجاور مع حدود إيبيريا. وتدلّ تسميتها نفسها على أن هذه الجزر عدّت نعيماً بسبب مجاورتها لمثل هذه البلدان.

6- زد إلى هذا أن هوميروس يقول بوضوح، إن الإثيوبيين يقطنون على أطراف الأرض، عند شواطئ المحيط. وقد قال إنهم يقيمون على أطراف الأرض في بيت الشعر الآتي:

... الإثيوبيين

الناس الطرفيين، الذين استوطنوا فريقين

(الأوذيسا I، 23)

(ويقينا إن قوله «استوطنوا فريقين»، هو قول صحيح، كما سنبين لاحقاً). أمّا أنهم يقطنون على شاطئ المحيط، فهذا ما يؤكّده بكلماته الآتية:

أمس مضى زيوس، حامل الصواعق، طاهراً إلى أمواج المحيط النائية

... إلى وليمة عند الإثيوبيين

(الإلياذا I، 423)

وقد ألمح لدى حديثه عن مجموعة نجوم الدب، إلى أن أقصى بلاد في الشمال تشاطئ المحيط:

وحيداً يتحاشى الاغتسال في مياه المحيط.

(الإلياذا XVIII، 489)

فهوميروس عنى بكلمتيّ مجموعة «الدب» و«المركبة»، «الدائرة القطبية»[3]، وإلاّ لما قال عن مجموعة الدب إنها «وحدها تتحاشى الاغتسال» في المحيط، لأنّ كثيراً من النجوم يتمّ دورته اليومية في ذلك الشطر من السماء الذي يراه دائماً. وعليه فإنه لا يصحّ اتهامه بالجهل لأنه لم يعرف سوى مجموعة دبّ واحدة بدلاً من مجموعتين. فربّما لم تكن مجموعة الدب الثانية قد عدّت في زمن هوميروس مجموعة معترفاً بها، فالإغريق لم يعرفوا بوجودها إلاّ بعد أن حدّدها الفينيقيون وأخذوا يستخدمونها في إبحارهم، والواقع نفسه ينسحب على كوكب سهيل وكوكبة بيرنيسيس كوما، ونحن نعرف أن هاتين المجموعتين لم تحملا اسميهما إلاّ منذ وقت قريب، وثمّة كثير من مجموعات النجوم الأخرى لم تدع بأسماء حتّى الآن، وهذا ما تحدّث عنه آرتوس

أيضاً. وعليه فإنّ كراتيت ليس محقّاً عندما سعى لينقض ما لا ينبغي أن يُنقض، فقد حوّر نصّ هوميروس ليصبح على النحو الآتي:

والدائرة القطبية تتحاشى أن تغتسل

أمّا هيراقليط فيسلك طريقاً أفضل وأكثر قرباً إلى روحية هوميروس، فهو يستخدم أيضاً كلمة مجموعة «الدب» بدلاً من «الدائرة القطبية»: «إن مجموعة الدب هي حدّ الصباح والمساء، ومن السماء الصافية تهب على مجموعة الدب ريح»[4]. فالدائرة القطبية، وليست مجموعة الدب، هي الحدّ الذي لا تغرب النجوم خلفه ولا تشرق. وعليه فإن هوميروس يقصد باسم مجموعة «الدب» (التي يدعوها أيضاً «المركبة» ويقول، إنها تحرس الجوزاء)، «الدائرة القطبية»؛ ويرى في المحيط دائرة الأفق التي ينتهي عندها غروب الكواكب ويبدأ منها شروقها. وعندما يقول هوميروس إن مجموعة الدب تدور في هذه الرّقعة من السماء، من غير أن تغوص في المحيط[5]، فإنه يعرف أن الدائرة القطبية تمرّ عبر أقصى نقطة في شمالي دائرة الأفق. وإذا ما أوّلنا بيت قصيدة الشّاعر على هذا النحو، فينبغي أن نقرّ بأنّ دائرة أفق الأرض تتطابق تماماً مع المحيط، وأن الدائرة القطبية تتماسّ مع الأرض (بالقدر الذي نثق فيه بحواسّنا) في أقصى نقطة من شمالي المعمورة[6]. ولذلك فإن هذا الشطر من الأرض، يتشاطأ بحسب هوميروس، مع الأرض. وهوميروس يعرف الناس الذين يعيشون في أقصى الشمال، مع أنه لا يدعوهم بأسماء (وليس لهم حتّى في يومنا هذا تسمية واحدة)؛ بل يطلق عليهم أسماء تتوافق ونمط عيشهم، فيدعوهم «أهل البداوة، الرّحل»، و«الرجال الغربيين الهيبيمولوغيين، الفقراء الذين يقتاتون على الحليب» (الإلياذا XIII، 5، 6).

7- كما يشير هوميروس في أماكن أخرى إلى أن المحيط يحيط بالأرض، فهيرا تقول عنده:

إني أمضي بعيداً، إلى أطراف الأرض المعطاءة
لأرى الخالدين أبي، والمحيط.

(*الإلياذا* XIV، 200)

فبهذه الكلمات يريد هوميروس أن يقول، إن المحيط يتماسّ مع حدود الأرض كلّها، وهذه الحدود في كلّ مكان. في الأغنية التي تتحدّث عن «صناعة درع أخيل»، يرسم هوميروس صورة للمحيط الذي يلفّ الطرف الخارجي للدرع[7]. والبرهان الآخر على محبة هوميروس هذه نفسها للمعرفة، هو معرفته الجيّدة بظاهرة المدّ والجزر التي تحدث في المحيط، وهذا واضح من حديثه عن «المحيط الذي يتدحرج حول نفسه» (الإلياذا XVIII، 399)، كما عن المحيط الذي:

يبتلع ثلاث مرّات في اليوم، ويردّ ثلاث مرات في اليوم

(الأوذيسا XII، 105)

ولكن بما أن المدّ لا يحصل «ثلاث مرات» بل مرتين، لذلك قد تكون معطيات هوميروس خاطئة، أو ينبغي أن نجيز إمكانية تعرّض نصّه للتحريف، لكنّ أسس زعمه تبقى هي نفسها[8]. وحتّى تعبيره «من تموجات المحيط المتهادية» (الإلياذا VII، 422)، يتضمّن إشارة ما إلى ظاهرة المدّ التي تتصاعد رويداً رويداً، ولا تندفع اندفاعة واحدة أبداً. وعلى أساس معطى هوميروس الذي قال فيه، إن الأمواج تغطّي الصخور تارة، وأن هذه تظهر عارية تارة أخرى، واستناداً إلى أن هوميروس يدعو المحيط نهراً، افترض بوسيدونيوس أن هوميروس رأى في حركة المحيط حركة مدّ. وفرضية بوسيدونيوس الأولى صحيحة تماماً، أمّا فرضيته الثانية فهي خالية من كلّ مغزى. فحركة المدّ المتصاعدة لا تشبه جريان النهر، كما أن الشبه بينها وبين حركة الجزر أقلّ. ويأتي تأويل كراتيت أكثر صواباً في هذا السياق. فهوميروس يدعو المحيط كلّه «بالجاري عميقاً»، و«الجاري القهقرى» (الأوذيسا 65، XX، 13، XI)، كما يدعوه نهراً كذلك. وهو يتحدّث عن شطر من المحيط حديثه عن نهر، أو كأنه «جريان نهر»، ولا يتحدّث في هذا السياق عن المحيط كلّه، إنّما عن شطر منه فقط، فيقول:

لقد شقّ التيار المحيط بسفينته مسرعاً،

ومرّة أخرى جئنا إلى البحر الذي طالما عاموا في مياهه

(الأوذيسا XII، 1)

وعليه فإن هوميروس لم يقصد المحيط كلّه، بل مجرى النهر الذي يصبّ في المحيط، ويشكّل جزءاً منه؛ ويقول كراتيت، إن هذا المجرى ليس سوى شيء ما يشبه الغور أو الخليج الذي يمتدّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب الجنوبي. وواقع الحال، هو أنك ما إن تغادر هذا الخليج حتّى يمكنك أن تدخل مياه المحيط، ولكن من البدهي إنك عندما تغادر المحيط، فإنه لا يمكنك في أيّ حال أن تكون في المحيط. وعلى أيّ حال فإن هوميروس يقول:

لقد ترك مجرى النهر، ووصل إلى أمواج البحر،

وليس «البحر» هنا شيئاً آخر طبعاً، سوى المحيط، وإذا ما أوّلنا هذا تأويلاً مغايراً، فإن الأمر سيكون على النحو الآتي: «بعد أن خرج أوديسيوس من المحيط، جاء إلى المحيط». بيد أنه ينبغي أن نناقش هذه المسألة بالتفصيل.

8- إننا نستطيع بناء على معطيات أحاسيسنا وتجربتنا أن نستنتج أن المسكونة عبارة عن جزيرة. ففي أيّ مكان يبلغ الإنسان فيه أطراف الأرض، ثمّة بحر، ونحن

ندعو هذا البحر محيطاً. وحيث لا يمكن إدراك هذا بالإحساس، فإن العقل يشير إلى الطريق. فالشطر الشرقي من المسكونة (الشطر الهندي) مثلاً، والشطر الغربي منها (الشطر الإيبيري والماوروسي)، يمكن أن ندور حولهما ونمضي في رحلتنا إلى مسافات بعيدة عبر شطريها الشمالي والشرقي. أمّا فيما يخصّ باقي أجزاء الأرض المسكونة التي لا تزال عصيّة علينا (لأن البحارة الذين يبحرون في اتجاهات متعاكسة، لم يلتق بعضهم بعضاً أبداً)، فإنها ليست كبيرة، إذا ما أجرينا حساباتنا على أساس المسافات المتوازية المعروفة لنا. فمن المستبعد أن يكون المحيط الأطلسي قد انقسم إلى بحرين تفصل بينهما برازخ قليلة الاتساع إلى درجة تعيق الإبحار الدائري حولهما؛ ولكنّ الأكثر احتمالاً، هو أن يكون هذا عبارة عن بحر مفتوح شكّل بالاندغام كلاً واحداً. لأنّ أولئك الذين أبحروا حول العالم ثمّ عادوا أدراجهم قبل أن يحققّوا هدفهم، قالوا إنهم عادوا لا لأنّ يابسة ما أعاقت تقدّمهم، فالبحر بقي مفتوحاً لكنّ نفاد المواد التموينية وشحّ المكان، هو ما أرغمهم على العودة. وهذا الاستنتاج يتوافق بطريقة أفضل، مع الظاهرات التي تحدث في المحيط أثناء المدّ والجزر. فالمبدأ عينه (مع شيء من الاختلاف البسيط)، يرصد في كلّ مكان، وهو الذي يفسّر تغيّر مستوى المياه (ارتفاعاً أو هبوطاً)، لأنه يبدو كأن حركتها تنتج عن البحر وحده، ولسبب واحد.

9- وليس اعتراض هيبارخ على هذا الرأي مقنعاً. أولاً، لا تُرصد الظاهرات عينها في كلّ مكان من المحيط، ثانياً، وحتّى لو أجزنا هذا، فإنه لا يعني بعد أن المحيط الأطلسي يجري حول الأرض في حلقة متصلة لا انقطاع فيها. ولكي يبرهن على صحّة رأيه، يستعين هيبارخ بسمعة سلوقس البابلي. وفيما يخصّ دراسة مسألة المحيط ومدّه بعد ذلك، فإننا نحيل القارئ إلى أبحاث بوسيدونيوس وأثينودوروس اللذين درسا هذه المادّة دراسة دقيقة وافية. ويكفي بالنسبة لبحثنا هذا أن نقول، إنه من الأفضل أن نعتمد الرأي القائل بالظاهرات المتماثلة في المحيط؛ لأنه بقدر ما تكون الكتلة المائية زاخرة حول الأرض أكثر، بقدر ما تتماسك الأجرام السماوية تماسكاً أفضل بفعل الأبخرة البحرية[9].

10- وعلى هذا النحو يتبيّن لنا أن هوميروس يعرف أقصى أطراف المسكونة وما يحيط بها، ويصفها بدقّة؛ كما يعرف بالدّقة نفسها أقاليم البحر المتوسّط. لأننا إذا بدأنا الوصف من أعمدة هرقل[10]، فسوف يتبيّن أن البحر المتوسّط محاط بليبيا، ومصر، وفينيقيا، وبعد ذلك بشطر القارّة المتوضّع قبالة قبرص، ثمّ بإقليم السولميين، وليكيا، وبلاد الكاريين؛ وأخيراً بالساحل المتوضّع بين ميكال وطروادا والجزر القائمة أمامهما. فقد أتى هوميروس على ذكر هذه البلدان كلّها واتبعها بذكره

للأقاليم المحيطة ببروبونتيدا والبونتس الإيفكسيني وصولاً حتّى كولهيدا وحدود حملة ياسون. زد إلى هذا أن هوميروس يعرف أيضاً البسبور الكيميري، لأنه يعرف الكيميريين (فمن غير الممكن أن يعرف اسم الكيميريين من غير أن يعرف هذا الشعب نفسه)، وكان هؤلاء قد نهبوا في زمن هوميروس أو قبل ذلك بقليل، كلّ الإقليم الممتدّ من البسبور إلى إيونيا. وقد ألمح هوميروس في كلماته الآتية إلى مناخ بلادهم الضبابي:

الضباب الرّطب وسديم الغيم، لا يظهر هناك

للعين أبداً وجه هيليوس المشرق،

فمنذ الأزل يحيط الليل الكئيب بالمكان.

(*الأوذيسا* XI، 15، 19)

كما يعرف هوميروس أيضاً نهر إيستر، لأنه يذكر الميسيسيين، والشعب التراقي الذي يستوطن ضفاف إيستر. وعلاوة على ذلك فإن هوميروس على معرفة بالساحل البحري الواقع على مقربة من إيستر على الجانب التراقي وصولاً حتّى نهر بينييوس؛ فهو يذكر البيونيين، والأفون، والأكسي والجزر المتوضّعة قبالتهم. ويلي بعد ذلك ساحل اليونان الذي يذكره كاملاً حتّى ثيسبروتيا. بل لقد كان هوميروس على اطلاع على أطراف إيطاليا العالية، لأنه يتحدّث عن تيميس وصقليا؛ كما يعرف أيضاً رؤوس الساحل الإيبيري، وثراء إيبيريا، كما أشرنا من قبل. وإذا كان ثمّة بلدان بين هذه البلدان أغفلها هوميروس، فهو معذور، لأنه حتّى المشتغلين بالجغرافيا يغفلون كثيراً من التفاصيل. ونحن يمكننا أن نسامح الشّاعر إذا ما ساق في روايته التاريخية التعليمية بعض سمات الحكايات الخرافية. إن هذا لا يستحق اللوم؛ فإيراتوسفين ليس محقّاً في قوله، إنّ كلّ شاعر يسعى لكي يحمل الغبطة، لا لكي يحمل العبرة التعليمية. وفي واقع الحال أن الأكثر حكمة من أولئك الذين كتبوا عن الشعر، قالوا، إنه ضرب ما من ضروب الفلسفة البدئية. ولكنّني سوف أدحض إيراتوسفين مرّة أخرى وبالتفصيل، عندما سيأتي الحديث مرّة ثانية عن هوميروس.

11- والآن أرى، أنه قد قيل ما يكفي للبرهان على أن هوميروس كان أوّل جغرافيّ[11]. ومن المعروف أيضاً أن خلفاء هوميروس كانوا أناساً أفذاذاً وعلى معرفة جيّدة بالفلسفة. ويقول إيراتوسفين، إن أوّل اثنين ممن خلفوا هوميروس هما أناكسيماندرس، تلميذ فاليس وابن مدينته، وهيكاتوس الميلتوسي؛ ويقول أيضاً، إن أناكسيماندس أوّل من أصدر خريطة جغرافية[12]، وأنّ هيكاتوس ترك لنا بحثاً في الجغرافيا، نُسب إليه بناء على تشابهه مع مؤلّفاته الأخرى.

12- لقـد أكّـد كـثيرون أن الاشـتغال بالجغرافيـا يتطلّـب امـتلاك ثقافـة واسـعة ومتنوّعـة. ففـي مؤلّفـه «ضـدّ إيراتوسـفين»[13]، يبـيّن هيبـارخ بحـق، أنـه لا يمكـن لأي شـخص (عالمـاً كـان أم جاهـلاً) أن يحصـل علـى المعـارف الضـرورية في الجغرافيـا إذا لم يكن قادراً على تحديد الظاهرات السـماوية وحسـاب الكسـوفات التي يرصدها. فمـن غير البحث بمسـاعدة «الأقاليم»[14] مثلاً، لا يمكـن تحديـد مـا إذا كانـت إسـكندرية مصر تقع شمالي بابل أم جنوبها، وعلى أي مسافة إلى الشمال منها أو إلى الجنـوب منهـا. وعلـى هـذا النحـو نفسـه فإننـا لا نسـتطيع أن نحـدّد بدقّـة النقـاط الواقعـة علـى مسـافات مختلفة إلى الشـرق مـن موقعنـا أو إلى الغـرب منـه، إلاّ بالمقارنـة بـين الكسـوف الشمسـية والخسوف القمرية[15]. هـكذا يقول هيبارخ عن هذا.

13- إنّ كلّ من يتصدّى لوصف السمات الفريدة التي تتسم بها البلـدان، يـدرس علـى وجـه الخصـوص علـم الفلـك، والهندسـة لكـي يحـدّد الأشـكال، والأحجـام، والمسافات بين المواقع، كما يدرس «الأقاليم»، والدفء والبرودة، وسمات الجوّ المحيط على وجه العموم[16]. وفي الواقع أن البنّـاء إذ يبني المبنـى، أو المعمـاري عنـدما يضـع خطّـة بنـاء المدينـة، فإنـه ينبغـي عليـه أن يستشـفّ هـذه الشـروط كلّهـا، والأمـر أكثـر أهميـة بالنسبة لمن يدرس المسكونة كلّها؛ فهذا يليق بـه أكثـر مـن أي شـخص آخـر. وفي نطـاق أمداء ليست كبيرة، ليس ثمّة أهميـة كبيرة لكـون المنطقـة المعنيـة تقـع إلى الشـمال أو إلى الجنوب؛ ولكـن إذا كـان المدى هـو دائـرة المسـكونة كلّهـا، فـإن الشـمال يمتـدّ إلى أقصى أطراف سيكثيا أو سلتيا، ويمتـدّ الجنـوب إلى أقصـى أطـراف إثيوبيـا، ويشـكل هذا اختلافـاً كبيراً. ويبقـى الأمـر عينـه صـحيحاً فيمـا يتعلّـق بسـكّان الهنـد أو بسـكّان إيبيريـا؛ فأحـد هـذين البلـدين يقـع كمـا نعـرف في أقصـى الشـرق، بينمـا يقـع الآخـر في أقصى الغرب، وهما يعدّان كما هو معروف، نقيضين بمعنى ما.

14- إنّ كـلّ الظـاهرات الـتي تنتمـي إلى هـذا النـوع، لأنهـا ناتجـة عـن حركـة الشمس والنجوم الأخرى، وسعيها نحو المركـز[17]، ترغمنـا علـى أن نتجـه بأنظارنـا إلى السماء ونراقب الظاهرات السـماوية في كـلّ مكـان نحـن فيـه. وثمّـة في هـذه الظـاهرات اختلافـات كـبيرة جـدّاً، تبعـاً لوضـعية الأمـاكن المسـكونة. ولـذلك إذا عـزم المـرء علـى عرض الاختلافات بين الأقاليم، فهل يستطيع أن يؤوّل هذه المادّة تأويلاً صحيحاً مـن غـير أن يولي اهتمامـاً حتّـى لـو سـطحياً، لهـذه الظـاهرات؟ ولكـن إذا كـان الالتـزام بالدّقّـة العلمية غير ممكـن في مثـل هـذه الأعمـال (لأنهـا تمـسّ أكثـر مـا تمـسّ قضـايا الدولـة)، فإنه ينبغي فعل ذلك حتّـى لـو إلى الحـدّ الـذي يسـتطيع عنـده رجـل الدولـة أن يفهـم اتجـاه أفكارنا.

15- حتّى الإنسان الذي يكون قد سما بأفكاره عالياً إلى السماء، لن يمتنع عن وصف الأرض ككل. لأنه سيكون من المضحك، إذا ما عزم المرء على أن يصف المسكونة وصفاً دقيقاً، أن يقرر دراسة الظاهرات السماوية ويستخدمها للدراسة، من غير أن يولي انتباهاً للأرض ككل (تؤلّف المسكونة جزءاً منه)، لا لحجمها، ولا لطابعها، ولا لوضعها في الكون، ولا حتّى لكون المسكون هو جزء من العالم فقط، وهو الجزء الذي نعيش فيه، أم أن المسكون هو أجزاء أخرى كثيرة (إذا كان الأمر كذلك)، وكم عدد تلك الأجزاء. ما مدى كبر الشطر غير المسكون من العالم، وما هو طابعه، ولماذا هو غير مسكون؟ ولذلك فإن هذا القسم الخاص من الجغرافيا، هو كما نرى عبارة عن اتحاد يجمع بين علم الأرصاد الجوية[18]، والجغرافيا، وعلم الهندسة؛ لأنه يجمع بين الظاهرات الأرضية والسماوية بصفتها ظاهرات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه:

كم تبدو السماء مشرقة من الوادي

(الإلياذا VIII، 16)

16- ثمّ نزيد على هذه المعارف المتنوّعة، تاريخ الأرض نفسها، أي تاريخ الحيوانات، والنباتات، وكلّ ما هو نافع أو ضارّ مما تنتجه الأرض أو ينتجه البحر (وأنا أرى أن هذا التحديد يجعل ما أقصد به بتعبير «تاريخ الأرض»، أكثر وضوحاً). وفي الحقيقة أن مثل هذه الدراسات كلّها، لها أهميتها كدراسات تمهيدية تحقّق الفهم الكامل؛ كما تحقّق معرفة طبيعة البلاد، وأنواع الحيوانات، والنباتات، وينبغي أن نضيف أيضاً كلّ ما له صلة بالبحر. فنحن بمعنى ما نعيش حياة ذات نمط مزدوج، ولا نعدّ كائنات برّية أكثر من كوننا كائنات بحرية. إنّ هذا النوع من المعارف يحقّق فائدة عظيمة لكلّ من يحصل عليه، وهذا واضح من الحكايات الخرافية القديمة، كما هو واضح على أساس الحجج العقلية. وفي الأحوال كلّها فإنّ الشعراء يعلنون أن الأحكم بين أبطالهم هم الأبطال الذين زاروا أراضيَ كثيرة وطافوا في الأرض طويلاً، فعلامة المجد العظيم عندهم هي

... زار كثيراً من ناس المدن ورأى عادات وعادات.

(الأوذيسا I، 3)

وحتى نسطور نفسه يتفاخر بأنه أقام بين اللابيثيين إذ دعي لزيارتهم كضيف:

[التارك بيلوس]

أرض أبي النائية: دعوني هم أنفسهم.

(الإلياذا I، 270)

وعلى هذا النحو نفسه تفاخر منيلايوس قائلاً:

رأيت قبرص، وزرت فينيقيـا، وبلغـت مصـر،

وأوغلت إلى السود الإثيوبيين، وحللت ضيفاً.

على الصيدونيين، والإيريمبيين، وكنت في ليبيا...

(الأوذيسا IV، 83)

ثم يضيف فيذكر السمة التي تتميّز بها البلاد،

... حيث تولد الشياه ذات القرون

حيث مرات ثلاث في كلّ عام تضع الماعز والشياه

(الأوذيسا IV، 86)

ويقول منيلايوس عن طيبة المصرية:

... الأرض هناك فيها وفرة وغنى

وتلد محاصيل كثيرة

(الأوذيسا IV، 229)

المدينة التي لها مئة باب، يخرج منها، من كلّ منها

مائتـا رجـل معـوار في مركبات تجـرها خيل عدّاءة

(الإلياذا IX، 383)

ولا يفوت هوميروس، بسبب الخبرة الكبيرة والمعطيات الكثيرة، أن يذكر هرقل **الذي أتى مآثر فريدة**

(الأوذيسا XXI، 26)

حتّى كلماتنا التي قلناها في البداية، تؤكّدها الحكايات الخرافية القديمة، وحجج العقل. لكنّي أرى أيضاً أن الرأي الآخر مهمّ على وجه الخصوص لاستنتاجي الراهن، أي أن القسم الأعظم من الجغرافيا يخدم احتياجات الدولة، لأنّ مسرح نشاط الدول، هو الأرض والبحر، أي مكان سكن الإنسان. ويكون المسرح صغيراً ومحدوداً إذا كان النشاط ضعيفاً، لكنّه يغدو عظيماً ورحباً إذا كان هذا مهمّاً. والمسرح الأعظم يشمل الأرض كلّها (ونحن ندعوها باسم خاص، «المسكونة»)، ولذلك فإنها ينبغي أن تكون مسرحاً للنشاط الأهمّ.

ثمّ الحكّام العظام، وهؤلاء أشخاص استثنائيون يمكن أن يسودوا في البرّ والبحر ويوحّدوا الشعوب والمدن تحت سلطة واحدة وإدارة سياسية واحدة. ولذلك من الواضح أن الجغرافيا ككل لها علاقة مباشرة بنشاط الحكّام، فهي تبسط القارّات

والبحار على الخريطة، ولا يقتصر الأمر هنا على البحار الموجودة في نطاق المسكونة، إنّما أيضاً البحار الواقعة خارج حدودها. ولهذا البسط الذي تعطيه الجغرافيا، أهميته بالنسبة للمهتمين بمعرفة كيفية توضّع البلدان والبحار، وهل هي معروفة أم لا تزال خارج نطاق البحث. فالحكّام يستطيعون إدارة كلّ بلد على حدة، إذا ما عرفوا حجمه، وموقعه، وخاصيات مناخه وتربته. ولكن بما أن حكّاماً كثراً يحكمون في شتّى أرجاء العالم، يحقّقون نشاطاتهم وينشرون حدود دولهم انطلاقاً من مراكز مختلفة، فإنّهم مثلهم مثل الجغرافيين، لا يمكنهم أن يعرفوا بدرجة واحدة أجزاء العالم كلّها. بيد أنه غالباً ما تتكشّف لأولئك وهؤلاء معارف «أكثر أو أقلّ». لأنه حتّى لو شكّلت المسكونة كلّها دولة عظمى واحدة، فإنه حتّى عندئذٍ بالكاد يمكن معرفة أجزاء هذه الدولة كلّها بدرجة واحدة. فالأمر مستحيل حتّى في مثل هذه الحالة أيضاً؛ لأنّ الأجزاء الأقرب إلى المركز ستكون مدروسة بصورة أفضل. وسيكون صحيحاً تماماً إعطاء وصف أكثر تفصيلاً لهذه الأجزاء لكي تغدو معروفة تماماً، فهي تقع على مقربة، ويمكنها من حيث موقعها أن تلبي حاجات الدولة بطريقة أفضل. ولذلك فليس ثمّة ما هو مستغرب في ضرورة وجود جغرافيّ خاص للهنود، وآخر للإثيوبيين، وثالث للإغريق والرومان. فعلى سبيل المثال، لماذا يكون الجغرافيّ الهندي مضطرّاً لإضافة تفاصيل عن بيوتيا كتلك التي يسوقها هوميروس:

مقاتلون من القبائل التي تستوطن غيريا، في أوليدا الوعرة
وسخوينوس، والقاطنون سكولوس

(الإلياذا II، 496)

إن هذه التفاصيل لها أهميتها بالنسبة إلينا، لكنّ مثل هذا الوصف التفصيلي لبلاد الهند ينبغي ألاّ يثير اهتمامنا. وفي واقع الحال، إن اعتبارات المنفعة لا تحرّضنا على هذا: إن المنفعة هي المعيار الحقيقي لاطلاعنا على مثل هذه الأشياء.

17- ومنفعة الجغرافيا في الشؤون القليلة الأهمية، واضحة بيّنة، كما في الصيد على سبيل المثال. فالتوفيق في الصيد سوف يحالف الصياد أكثر إذا كان هذا يعرف خاصيات مدى الغابة واتساعه. وعلى النحو عينه سوف تكون حال من يعرف المكان معرفة جيّدة، إذ يمكنه أن يوفّق في إقامة معسكر، أو ضرب حصار، أو أن يكون دليلاً. وتظهر منفعة الجغرافيا جليّة في التدابير الكبرى، لأنّ أوسمة النصر وعقاب الهزائم اللذين يعدّان نتيجة للمعرفة أو الجهل، سوف يكونان أعظم. فآغاممنون مثلاً، ومعه أسطوله، دمّر ميسيا ونهبها، ظنّاً منه إنها إقليم من أقاليم طروادا، وعاد من هناك مجلّلاً بالعار. أمّا الفرس والليبيون فقد ظنّوا أن المضائق ليس لها مخارج،

فوضعوا بذلك أنفسهم تحت خطر داهم، وليس هذا وحسب، إنّما تركوا شواهد على جهلهم أيضاً؛ فالفرس شيّدوا هضبة - مدفناً في يوريبا على مقربة من خلكيديا، على شرف سالغانيوس الذي زعموا أنهم قتلوه لأنه خدعهم وقاد أسطولهم من مضيق آسيا الصغرى إلى يوريبا، والليبيون[19] أيضاً أقاموا أنصاباً تذكارية على شرف بيلور، الذي أعدموه للسبب نفسه. واليونان بدورها، كانت مغطاة بكسرات من حطام السفن في أثناء حملة كسيراكس. ويقدّم لنا تاريخ المستعمرات الأيولية والإيونية كثيراً من الأمثلة على مثل هذه المآسي. بيد أنه كانت ثمّة حالات من التوفيق انتهت بتحقيق النجاح بفضل معرفة المكان. فيحكى على سبيل المثال أن إيثالس أرشد الفرس إلى درب جبلية في ثغور ثرموبل، فقدم بذلك فصيل ليونيد لقمة سائغة للفرس، وقاد البرابرة إلى عمق اليونان جنوبي ثرموبل. ولكن إذا تركنا التاريخ القديم إلى المعاصر، فإني أرى أن حملة الرومان على بارثيا[20]، تعدّ تأكيداً كافياً على صحّة ما أقول، وكذلك هي حال حملاتهم ضدّ الجرمان والسلت[21]، لأنّ البرابرة أداروا في هذه الحالة الأخيرة حرب عصابات، فتخفوا في المستنقعات، وثغور الغابات والصحارى غير المطروقة، فجعلوا الرومان الذين لا يعرفون المكان يظنّون المكان القاصي دانياً، وهكذا أبقوهم في حال من الجهل حيال الطرق، واحتياطات التموين، وما إلى ذلك.

18- وعلى هذا النحو فإن القسم الأكبر من الجغرافيا يخدم، كما قلنا من قبل، حاجات الحكّام؛ ومثله أيضاً القسم الأعظم من التعاليم الأخلاقية والسياسية، له صلة بحياة الحكّام. والبرهان على هذا، هو أننا نقيم الاختلاف في شكل حكم الدول بحسب السلطة العليا؛ فندعو سلطة عليا ما بالسلطة الملكية أو القيصرية وندعو أخرى بالسلطة الأرستقراطية، وندعو ثالثة بالسلطة الديمقراطية. وبين أيدينا عدد مماثل من أشكال إدارة الدولة التي ندعوها بأسماء حكّامها، لأنّ الدول أخذت منهم السمات الأساسية لأشكال إداراتها. وفي بلد ما تكون إرادة الملك هي القانون، وفي بلد آخر تكون إرادة الشخصيات التي تحمل ألقاباً عالية، هي القانون، وفي بلد ثالث تكون إرادة الشعب، هي القانون. فالقانون هو الذي يمنح بناء الدولة نمطه وشكله، ولذلك يعرّف بعضهم «العدالة» بأنها «مصلحة الأقوى»[22]. وهكذا إذا كانت الفلسفة السياسية تتعامل في جزئها الأكبر مع الحكّام، وإذا كانت الجغرافيا في خدمة هؤلاء أيضاً، فإن لهذا العلم الأخير، كما أرى، بعض الأفضلية على الفلسفة السياسية. لكنّ هذه الأفضلية ترتبط بالحياة العملية.

19- تتضمّن دراسة الجغرافيا نظرية ليست قليلة الأهمّية، هي نظرية الفنون، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، والنظرية التي تقوم في أساس التاريخ والأساطير (مع أنه

ليس للأساطير أي صلة بالحياة العملية). فإذا ما روى أحدهم على سبيل المثال، قصة ترحال أوديسيوس، ومنيلايوس، أو ياسون، فيجب ألاّ يظنّن أحد أن الراوي يغني بذلك الحكمة العملية لدى مستمعيه (هذا ما يسعى إليه الشخص العملي)، إلاّ إذا ألحق بروايته دروساً مفيدة يستخلصها من المآسي التي عاناها هؤلاء الأبطال. ومع ذلك فإن هذه الروايات يمكن أن تمنح قدراً كبيراً من المتعة للمستمعين الذين يهتمّون بالمواقع التي ولدت الأساطير فيها. فالأشخاص العمليون شغفون بمثل هذه الأعمال، لأنّ مثل هذه المواقع مواقع شهيرة، أمّا الأساطير فهي مليئة بما هو ممتع. ولكن اهتمام مثل هؤلاء الأشخاص بمثل هذا كلّه، لا يطول، لأنهم يهتمّون بما هو عملي ونافع أكثر ممّا يهتمّون بالأشياء الشهيرة والمليئة بالمتعة، وهذا أمر طبيعي. ويبقى هذا المبدأ عينه فاعلاً بالنسبة للتاريخ، وعلوم الرياضيات أيضاً، ففي هذه العلوم ينبغي أن تعطى الأفضلية دائماً لما هو نافع وأكثر يقينية.

20- وكما نوّهنا سابقاً فإن مادّة كالجغرافيا تحتاج بالضرورة إلى علميّ الهندسة والفلك. وهما فعلاً ضروريان لها. فبغير استخدام طرائق هذين العلمين يتعذّر تحديد التكوينات الهندسية للبلدان، و«الأقاليم»، والأحجام وما شابه من المفاهيم الأخرى. ولكن بما أن كلّ ما يمتّ لقياس الأرض قد جرى البرهان عليه في مؤلّفات أخرى، فإنه ينبغي عليّ في هذا البحث أن أسلّم بصحّة الموضوعات التي أقرّت هناك بصدد الشكل الكروي(23) للعالم، وأن أقبل كذلك موضوعة كروية سطح الأرض؛ عدّاك عن هذا أنه كان يجب عليّ أن أسلّم قبل ذلك بحقيقة وجود قانون الجاذبية المركزية لحركة الأجسام(24). لكنّني ملزم على أن أعرض بإيجاز السمات العامّة للموضوعة الآتية: هل ينشأ هذا التسليم - إذا كان ينشأ فعلاً - في ميدان إدراكنا الحسّي، أم أنه متجذّر في المعرفة الافتراضية للناس جميعهم؟ لنأخذ على سبيل المثال، التسليم بأن الأرض كروية الشكل: يقوم البرهان على صحّة هذه المقولة استنتاجياً، في حركة الجاذبية المركزية، كما في حقيقة أنّ كلّ جسم يميل نحو مركز ثقله؛ ويقوم مباشرة في الظاهرات التي يجري رصدها في البحر والسماء. فإدراكنا الحسّي، وكذلك الاعتقاد البشري البسيط يمكن أن يؤكّدا صحّة ذلك. فمن المعروف مثلاً، أن انحناءات البحر تعيق البحارة عن رؤية الضوء النائي [النيران] على مستوى نظرهم. وعلى أيّ حال فإن النيران الأعلى من مستوى النظر تغدو مرئية، حتّى لو كانت على مسافة قاصية عن موقع المراقب. وعلى هذا النحو عينه إذا كانت العينان مرتفعتين فإنهما تريان ما كان غير مرئي قبل ذلك. وهذا ما أشار إليه هوميروس أيضاً، لأنّ لكلماته الآتية مثل هذا المغزى:

إذ رفعته الموجة إلى فوق، وتطلّع إلى الأمام حالاً

[رأى الأرض أمامه على مقربة].

(*الأوذيسا* V، 393)

عدا عن هذا، حينما يقترب البحارة من اليابسة، تظهر لأنظارهم بالتدرّج أجزاؤها القريبة، وما بدا في الأوّل منخفضاً، يتعالى بعد ذلك بالتدرّج أعلى فأعلى. والدوران الدائري للأجرام السماوية واضح من حقائق كثيرة، لكنّه واضح على وجه الخصوص بمراقبة الساعات الشمسية[25]. ومن هذه الظاهرات يتوصل عقلنا البشري إلى خلاصة مفادها، أن هذا الدوران الدائري ما كان ليحصل لو أن الأرض راسخة على أسس تمتدّ إلى أعماق لا نهاية لها. ونحن عرضنا دراستنا عن «الأقاليم» في باب الأقاليم المسكونة[26].

21- وينبغي علينا الآن فوراً أن نأخذ من هذه العلوم بعض المعطيات، خاصة ما يفيد منه رجل الدولة، والقائد العسكري. فلا يمكن أن يكون المرء جاهلاً بشؤون الظاهرات السماوية وتوضّع الأرض إلى حدّ يجعله يرتبك إذا ما حلّ في بلاد تتغيّر فيها بعض الظاهرات السماوية ويهتف متعجباً:

إننا لا نعرف، أيها الأصدقاء، أين يتوضّع الغرب، أين يظهر إيوس،

أين يهبط هيليوس حامل النور [تحت الأرض]، أين يصعد السماء.

(*الأوذيسا* X، 190)

ومن جهة أخرى، ليس من الضروري أن يمتلك المرء مثل هذه المعارف العلمية الدقيقة، لكي يفهم كيف تشرق مجموعات النجوم وتغرب وخطوط الطول تعبر في الوقت عينه كلّ مكان، أو أن يعرف ارتفاع «القطبين»[27]، ومجموعات النجوم، الواقعة في السمت، وما إلى ذلك من الظاهرات المتغيّرة التي ترتبط بتغيّر دوائر الأفق والدوائر القطبية، وقد تكون إمّا افتراضية وإمّا حقيقية. وينبغي علينا على وجه العموم ألاّ نعير انتباهاً لبعض مثل هذه الظاهرات، لكن ليس إذا ما نظرنا إليها من زاوية نظر الفيلسوف. أمّا باقي الظاهرات فينبغي أن نأخذها على وجه اليقين كما هي، حتّى لو لم نر أسساً لهذا. فالمسألة المتصلة بأسباب الظواهر، هي في متناول أهلية الأشخاص الذين يدرسون الفلسفة وحسب، وليس لدى رجل الدولة الوقت الكافي لهذا، أو في أقل تقدير لا يجده دائماً. ومع ذلك فإن قارئ الكتاب ينبغي ألاّ يكون بسيطاً وبعيداً إلى درجة أنه لم يكن قد رأى من قبل مجسّماً للكرة الأرضية أو الدوائر المرسومة عليه وبعضها متواز، بينما بعضها الآخر مرسوم بزوايا قائمة على الدوائر المتوازية، وبعضها الثالث ينحني نحوها. كما يجب ألاّ يكون القارئ جاهلاً إلى درجة أنه لا يمتلك فكرة

عن وضع المدارات، وخطّ الاستواء ودائرة البروج، وهي المنطقة التي تعبرها الشمس في أثناء حركتها فتنشئ بذلك تباين المناطق المناخية والرياح. وإذا كان المرء يفتقر حتّى إلى الاطلاع السطحي على هذا كلّه، كما على تعاليم دوائر الأفق والدوائر القطبية وما إلى ذلك مما يعرض في كتب الرياضيات الابتدائية، فإنه سوف يكون عاجزاً عن فهم ما جاء في هذا الكتاب. لكن من لا يعرف حتّى ماذا يعني الخطّ المستقيم أو الخطّ المنحني أو الدائرة، ولا يفرّق بين السطح الكروي والسطح المستوي، ولا يميّز نجوم الدب الأكبر السبعة في السماء، أو ما شابه ذلك، فإن هذا الكتاب لن يكون ضرورياً له (أو ليس ضرورياً الآن)، قبل أن يطّلع على المواد التي لن يستطيع معرفة الجغرافيا من غيرها. وعلى هذا النحو أيضاً، فإن الذين وضعوا مؤلّفات بعنوان «الموانئ» و«الطواف»[28]، فإن أبحاثهم تبقى غير مكتملة إذا لم يضيفوا كلّ المعطيات في الرياضيات والفلك، التي ينبغي أن تتضمّنها كتبهم.

22- قصارى القول، إن هذا الكتاب ينبغي أن يكون ذا نفع على وجه العموم، ذا فائدة لرجل الدولة ولأيّ قارئ آخر على حدّ سواء مثله في هذا مثل كتابي الآخر في التاريخ. ونحن عندما نقول رجل الدولة، فإننا في هذا الكتاب والكتاب الآخر، لا نقصد الإنسان الجاهل تماماً، بل نعني ذلك الذي تلقّى معارف في دائرة معروفة من العلوم[29] المعتادة بالنسبة لمن ولدوا أحراراً، أو يشتغلون في الفلسفة. فالإنسان الذي لا تشغله مسائل الفضيلة، والحكمة العملية، وما كتب في هذا السياق، لن يكون بمقدوره أن يعبّر تعبيراً صحيحاً عن تنديده، أو مديحه، أو أن يقرر أيّ الحقائق التاريخية تستحق الذكر في هذا العمل.

23- وهكذا بعد أن أصدرت «مذكراتي التاريخية» التي كما أظنّ، حقّقت فائدة للفلسفة الأخلاقية والسياسية، عزمت على كتابة المؤلّف الحالي. فلهذا العمل خطّة مماثلة لخطّة سابقة، وهو معدّ للدائرة عينها من القرّاء، في الغالب للذين يشغلون مكانة مرموقة. ثمّ كما أني لم آت في «مذكراتي التاريخية» إلاّ على ذكر الأحداث التي حفلت بها حياة الشخصيات البارزة، وأغفلت الأعمال الصغيرة والمخزية، كذلك الأمر في هذا العمل، إذ يجب عليّ ألاّ أتطرّق فيه إلى الظاهرات العادية وغير الملحوظة، بل ينبغي أن أنشغل بالمواد الشهيرة والعظيمة، التي تحتوي على ما هو نافع عملياً، ومشهود أو مُرض. ومثلما نتعامل في حكمنا على وقار التماثيل الكبرى وجدارتها، إذ لا نتفحّص تفاصيلها، بل على الأغلب أننا نقوّم الانطباع العام ونحاول أن نرى ما إذا كان التمثال جيّداً ككل، كذلك، على هذا النحو نفسه يجب أن نتعامل مع كتابي هذا، لأنه يعدّ على وجه ما عملاً عمّا هو عظيم ومهول، ويتطرّق إلى الظاهرات التي لها

أهمية كبرى، وعلى مستوى العالم كلّه، ما عدا حالات يمكن أن تثير فيها المواد الصغيرة الشأن اهتمام الشخص الفضولي أو الشخص العملي. وقد قيل هذا كله لبيان مدى أهمية هذا العمل بالنسبة للفيلسوف.

الفصل الثاني

1- إذا كنت قد عزمت على أن أكتب في مادّة كتب فيها كثيرون قبلي، فإني في أي حال لا أستحقّ اللوم إذا ما عجزت عن البرهان على أني عرضت المادّة على الوجه نفسه، كما فعل الذين سبقوني. ومع أن مختلف أسلافنا كتبوا أعمالاً لامعة في شتّى ميادين الجغرافيا، إلاّ أنني أزعم أن الجزء الأكبر من العمل لا يزال ينتظر من ينجزه. وإذا ما نجحت في أن أضيف لو قليلاً إلى ما جاؤوا به، فإن هذا بحدّ ذاته سيكون برهاناً كافياً على صحّة مبادرتنا. والحقيقة أن امتداد الإمبراطوريتين الرومانية والبارثية، منح الجغرافيين المعاصرين فرصة لتقديم إضافات مهمّة تزيد من معطياتنا العملية في ميدان الجغرافيا، تماماً مثلما ساعدت حملة الإسكندر على حدّ قول إيراتوسفين، جغرافييّ الزمن السابق في هذا الميدان. فالإسكندر فتح لنا نحن الجغرافيين الشطر الأكبر من آسيا، وكلّ الشطر الشمالي من أوروبا وصولاً إلى نهر إيستر، أمّا الرومان فقد فتحوا الأجزاء الغربية من أوروبا كلها وصولاً إلى نهر ألبيس (الذي يشطر جرمانيا إلى شطرين)، والأقاليم الواقعة وراء إيستر حتّى نهر تيراس، وعرّفنا ميتريدات الملقب يفباتور، وقادة جيوشه، بالبلدان الواقعة وراء نهر تيراس حتّى بحيرة ميوتيا والساحل البحري الذي ينتهي عند كولهيدا. ومن جهة أخرى أغنى البارثيون معطياتنا عن هركانيا وباكتريانا وعن السكيثيين، الذين يستوطنون إلى الشمال من هركانيا وباكتريانا. فهذه الأقاليم كلها لم تكن معروفة إلاّ قليلاً لدى الجغرافيين السابقين، ولذلك يمكنني أن أقول عنها أكثر مما قاله الذين سبقوني. ويتّضح هذا على وجه الخصوص مما سأقوله معارضاً أسلافي هؤلاء. لكنّ معارضتي تنسحب على جغرافيي الزمن الأقدم بدرجة أقل مما تنسحب على أسلاف إيراتوسفين وعلى إيراتوسفين نفسه. فبما أن إيراتوسفين وأسلافه توفّروا على معطيات أكثر اتساعاً مما توفّر لأكثر الجغرافيين، لذلك فإن الجغرافي المتأخر سوف يجد صعوبات أكبر في الكشف عن أخطائهم، اللهمّ إذا كانوا قد أصدروا أحكاماً غير صحيحة. وإذا ما ألفيت نفسي مرغماً على أن أعارض في بعض المسائل من أنا أقرب إليهم في المسائل الأخرى، فإني أستحقّ العذر. وأنا لا أنوي أن أنتقد الجغرافيين جميعهم (أكثر أعمالهم لا تستحق أن تقتدى فصرفت النظر عنها)، لكنّني سأتحدّث فقط عن أولئك

الذين لهم في أكثر الأحيان آراء سديدة. ومن البدهي أنه من غير المستحسن الدخول في مماحكات فلسفية مع جميعهم، بيد أنه يكفي تماماً انتقاد إيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس، وبوليبيوس وما شابههم من المؤلّفين.

2- وينبغي عليّ أن أدرس آراء إيراتوسفين أولاً، وسأعرض في السياق معارضاته لهيبارخ. ولكن ليس من السهل الإيقاع بإيراتوسفين عبر المعارضات، لكي يمكن أن تؤكّد على سبيل المثال، وكما حاول أن يفعل بوليمون[2]، أنه لم ير أثينا حتّى مجرّد رؤية، بيد أنه من جهة أخرى، لا يستحقّ أن يوثق به إلى الدرجة التي يمنحه إياها بعضهم[3]، مع أنه تواصل، كما يقول، مع كثير من الشخصيات البارزة. فقد أكّد أنه «في ذلك الزمن، وكما لم يحصل من قبل، اجتمع تحت قبّة واحدة وفي مدينة واحدة، فلاسفة كانوا في قمّة ازدهار نشاطهم زمن أريستون، واركيسيلايوس». لكنّني أرى أن هذا الزعم غير كاف بالنسبة إلينا: يجب أن نقرر على وجه صحيح، مَنْ مِنَ المعلّمين يستحق أكثر من سواه أن نتبع خطاه. لكنّ إيراتوسفين يضع أركيسيلايوس، وأريستون على رأس العلماء الذين ازدهروا في زمنه، ورأى في أبيلليس شخصية مشهورة، ومثله بيون، الذي قال عنه: «بيون أوّل من خلع على الفلسفة ثياباً مزركشة»، ولكن مع ذلك غالباً ما استخدموا في الحديث عن بيون، الكلمات الآتية:

أيّ [ورك] لدى بيون تحت الأسمال[4]

(*الأوذيسا* XVIII، 74)

وواقع الحال هو أنّ إيراتوسفين يكشف في هذه الآراء عن الجانب الضعيف في زعمه. ونتيجة لهذا الضعف، لم يأت على ذكر أيّ من خلفاء زينون على الرغم من أنه درس في أثينا على يديّ زينون الكيتيوسي هذا نفسه، بل فعل العكس وتحدّث عن الفلاسفة الذين ابتعدوا عن تعاليم زينون ولم ينشؤوا مدرستهم الخاصة، وقال إنهم ازدهروا في زمنه شخصياً. ويتّضح اتجاه إيراتوسفين في مؤلّفيه، «المنافع»، و«تمارين في الإنشاد»[5]، ومن كلّ ما كتبه في هذا السياق: لقد تأرجح بين طموحه نحو الفلسفة وخوفه من أن يكرّس نفسه لهذه المهنة، لكنّه لم يبلغ سوى أنه توّهم أنه فيلسوف أو جعل لنفسه من الفلسفة، بمعنى ما وحسب، مجرّد تسلية انصرف بها عن مشاغل الحياة اليومية ليملأ وقته الفارغ. وحتّى في مؤلّفاته الأخرى يكشف إيراتوسفين بمعنى ما عن هذا التوجّه نفسه. لكنّنا نترك هذا. فتحقيق هدفي يتطلّب الآن مني أن أحاول قدر الإمكان تصحيح جغرافيا إيراتوسفين، وقبل كلّ شيء، بالاتجاه الذي حدّدته منذ قليل.

3- يقرر إيراتوسفين أن غاية كلّ شاعر، هي أن يحقّق المتعة، لا الوعظ

والإرشاد. أمّا القدماء فقد أكّدوا على الضدّ من هذا، أن الشعر هو شيء ما يشبه الفلسفة البدئية التي تقودنا منذ الطفولة لتلج بنا أبواب الحياة، وهو إذ يحقّق لنا المتعة، فإنه يشكّل طباعنا، وأحاسيسنا، وسلوكنا. وتؤكّد مدرستنا[6]، علاوة على هذا أن «الحكيم هو وحده الشاعر»[7]. ولذلك فإن مختلف دول اليونان تربّي شبابها في الأوّل على الشعر؛ وغني عن البيان القول: إنهم لا يفعلون هذا للتسلية واللهو، إنّما للموعظة والإرشاد الأخلاقي. ولذلك فإن الموسيقيين أيضاً عندما يعلّمون الغناء، والعزف على الناي أو القيثارة فإنهم يدّعون فهم هذا الفنّ؛ فهم يؤكّدون على أن لهذه النشاطات مغزى تربوياً، وأنها تمهّد سبيل الكمال الأخلاقي. ونحن يمكننا أن نسمع مثل هذه التأكيدات لا من الفيثاغورسيين فقط، فبالروحية نفسها يتحدّث إريستوكسين أيضاً. وحتّى هوميروس يدعو الآييديين، قادة أخلاقيين، عندما يتحدّث عن حراسة كليتيمنيسرا.

[الحرس]... الذين أمرهم الملك آغاممنون

بمراقبة عقيلته، وهو يستعد للإبحار إلى طروادا

(*الأوديسا* III، 267)

ثمّ يضيف، إن إيجيستوس لم يستطع أن يمتلك كليتيمنيسرا إلاّ بعد أن

لم ينف ذلك المغنيّ إلى جزيرة قاحلة،

حيث ترك.

فدعاها إلى منزله، هي التي تريده وحده.

(*الأوديسا* III، 270)

ولكن علاوة على هذا كلّه، فإن إيراتوسفين يناقض نفسه؛ فقبيل الظاهرة المذكورة بقليل وفي بداية بحثه الذي كرّسه للجغرافيا يقول، في الأزمنة الأقدم نزع الشعراء كلّهم إلى إظهار معارفهم في الجغرافيا. ثم يقول: وفي واقع الحال فإن هوميروس أدرج في ملحمتيه كلّ ما كان يعرفه عن الإثيوبيين، وسكّان مصر وليبيا، وعند وصفه لليونان استغرق حتّى بالتفاصيل التي لا لزوم لها، فدعا تيسبا «بالعزيزة على قلب القطعان الوديعة» (الإلياذا II، 502) وهاليارتوس «بالكثيرة الأعشاب» (الإلياذا II، 503)، وأنثيدون «بالنائية» (الإلياذا III، 508)، وليليبا بالواقعة «عند المخرج الصاخب للتيار الكيثي) (الإلياذا III، 523). ويزيد إيراتوسفين قائلاً:

إن هوميروس لا يطلق الصفات جزافاً قط. وأنا أسأل في هذه الحال، هل يشبه الشّاعر هنا الشخص الذي يسلّي أم الذي يعلّم[8]؟ وسوف يجيب إيراتوسفين: «أقسم

بزيوس أن الأخيرة هي الأصح طبعاً، ولكن على الرغم من أن هوميروس استخدم هذه الصفات بغرض التعليم، فإنه والشعراء الآخرين ملؤوا كلّ ما يقع خارج ملاحظتهم المباشرة بخوارق خرافية». وعندئذٍ كان ينبغي على إيراتوسفين أن يقول، إن «كل شاعر يكتب في أحوال ما للتسلية، وفي أحوال أخرى للتعليم». ولكنّ إيراتوسفين يحاول عبثاً تماماً إذ يتساءل: ما الجديد الذي يضاف إلى أهلية الشّاعر الرفيعة إذا ما صار ضليعاً في الجغرافيا، والشؤون العسكرية، والعمل الزراعي، والبلاغة، أو أي ميدان آخر من ميادين المعرفة التي شاء بعضهم أن ينسبها إليه؟ وعليه فإن النزوع إلى منح هوميروس معارف في الميادين كلّها، يمكن النظر إليه كسمة إنسان تخطى حب الذات عنده حدود اللياقة؛ إذ يبدو الأمر على حدّ قول هيبارخ، كما لو أن أحدهم علّق على إيرسيونة أتيكا[9] تفاحاً وكرزاً، أو أي شيء آخر لا يمكنها أن تثمر من ثمره؛ وعلى هذا النحو فإنه من الغباء أن تنسب لهوميروس المعارف كلّها والفنون كلّها. وفي هذه الحالة قد تكون أنت يا إيراتوسفين محقّاً، بيد أنك لست محقّاً عندما تسلب هوميروس سعة علمه وتعلن الشِّعر حكايات عجائز، ويجوز فيها، كما تقول، اختلاق كلّ شيء يلائم بلوغ هدف تزجية الوقت بما هو مسلّ؛ فهل حقّاً أن الشعر لا يضيف شيئاً إلى الأهلية الرفيعة لأولئك الذين يسمعون الشعراء؟ وأنا أقصد مرّة أخرى إلى أن الشّاعر ضليع في الجغرافيا، والشؤون العسكرية، والعمل الزراعي أو البلاغة، أي كلّ المواد التي ينسب مستمعو الشّاعر معرفتها له.

4- ولكنّ هوميروس نسب إلى أوديسيوس المعارف كلّها في هذه الميادين؛ فوشى البطل بشتّى ضروب المروءة التي تفوّق بها على الأبطال الآخرين كلّهم. فأوديسيوس عنده

زار كثيراً من الناس والمدن، ورأى عادات.

(الأوذيسا I، 3)

وهو:

رجل عارف بشتى الدسائس والنصائح الحكيمة.

(الإلياذا III، 202)

وهو يدعى دائماً «بمقارع المدن»، الذي استولى على إيليون:

بكلمته، ونصحيته ومهارة حيلته[10].

ويقول عنه ديوميدس:

إذا كان هو رفيق دربي، فإننا سنعود إليكم

معاً من قلب النار المستعرة

(الإلياذا X، 246)

وعلاوة على هذا يفخر أوديسيوس ببراعته في حراثة الأرض، فقد قال فيما يخصّ الحصاد، على سبيل المثال:

في الربيع... إذا ما أعطي كلّ منّا منجلاً
حاداً بالدرجة نفسها.

(الأوذيسا XVIII، 368)

وبصدد حراثة الأرض:

فسوف ترى بأم عينك، كيف يشقّ محراثي
الحقل مسرعاً بثلوم طويلة

(الأوذيسا XVIII، 375)

ولكن لم يكن هوميروس وحده الذي يملك الحذق والمهارة في هذه الأعمال، فالمثقفون كلّهم كانوا يستندون إلى الشّاعر بصفته شاهداً قوله صحيح في البرهان على أن مثل هذه المعرفة العملية تمهّد إلى حدّ كبير، سبيل بلوغ الحكمة.

5- ولا ريب كذلك في أن البلاغة معرفة لها صلة بالكلام. ويظهر أوديسيوس هذه المعرفة على امتداد الملحمة كلّها: «في المحن»، و«والتوسلات»، و«السفارات»[11]، حيث يقول هوميروس:

لكنّه حين أطلق صوته الجبّار من صدره،
اندفع الكلام من بين شفتيه كعاصفة ثلجية!
كلا، لا يجرؤ أحد على مجاراة أوديسيوس

(الإلياذا III، 221)

فمن يفكر إذن، أن الشّاعر الذي استطاع أن يطلق الآخرين في تأدية أدوار الخطباء أو القادة العسكريين أو سوى ذلك من أدوار المهارة في فن البلاغة، يعدّ هو نفسه مجرّد ثرثار ومشعوذ دجال ليس قادراً إلا على أن يخدع مستمعيه بالبلهوانيات، ولا يقدّم لهم أي عون أو فائدة. ونحن لا نستطيع أن نقول، إن أي أهلية رفيعة أخرى يتمتّع بها الشّاعر (كائنة ما كانت)، تفوّق تلك التي تمكّنه من محاكاة الحياة بوسائل الكلام. وكيف يستطيع إنسان لا يمتلك تجربة في الحياة، وغبي، كيف يستطيع مثل هذا الشخص أن يحاكي الحياة؟ ومن البيّن أننا لا نتحدّث عن أهلية الشّاعر هنا بالمعنى الذي نتحدّث فيه عن أهلية السياسي أو الحدّاد. فأهلية هذين ليست مرتبطة بنبل أو عظمة فطريين، بينما ترتبط أهلية الشّاعر بأهلية الإنسان نفسه، فلا يمكن أن يغدو المرء شاعراً جيّداً إلا إذا بات قبل ذلك، إنساناً جيّداً.

6- وعلى هذا النحو فإن سلب هوميروس مهارته في البلاغة، يعني تجاهلاً تاماً لموضوعاتنا الأساسية كلّها. لأنه ما الذي تتسم به البلاغة إلى هذه الدرجة إن لم يكن الأسلوب؟ وما الذي يتسم به الشعر أيضاً؟ ومن الذي تفوّق على هوميروس في الأسلوب؟ «إني أقسم بزيوس أنك ستجيب: ولكنّ الأسلوب الشعري يختلف عن الأسلوب البلاغي». «من حيث الشكل، نعم؛ كما يختلف في الشعر نفسه أسلوب التراجيديا عن أسلوب الكوميديا، ويختلف في النثر أسلوب التاريخ عن أسلوب المرافعات القضائية». أو ليس الكلام مصطلحاً يعكس مفهوماً جنسياً نوعاه الكلام الإيقاعي والكلام النثري؟ أم أن الكلام بمعناه الأعم، هو على الأرجح مفهوم جنسي، بينما لا يعدّ الكلام الخطابي مفهوماً جنسياً، وأن الأسلوب، هو أهلية الكلام وحسب؟ ولكنّ الكلام النثري (وأقصد هنا النثر الفني)، هو محاكاة للكلام الشعري. لأنّ الشعر بصفته فناً كان أوّل الطالعين إلى المسرح، وأوّل من نال الاحترام. ثمّ ظهر قدموس، وثيريكيدس، وهيكاتيوس وأنصارهم بمؤلّفات نثرية حاكوا فيها الشعر، متخلين في ذلك عن العروض الشعرية، لكنّهم حافظوا في الآن عينه على سمات الأسلوب الشعري الأخرى كلّها. وبدورهم تخلى الكتاب الذين جاؤوا بعد ذلك، عن سمة ما من هذه السمات، وأعطوا النثر صيغته الراهنة، وكأني بهم هبطوا به رويداً رويداً من علياء ما. وعلى هذا النحو عينه يمكن الحديث عن الكوميديا، فقد تلقت هذه بنيتها من التراجيديا، إلا أنها إذ تقهقرت عن علياء التراجيديا، وصلت إلى ما يدعى اليوم بالأسلوب «النثري». وحقيقة أن القدماء استخدموا كلمة «يغنّي» بدلاً من كلمة «يتكلّم»[12]، تشهد على وجه التحديد بأن الشعر كان مصدر الأسلوب البلاغي أو المنمّق وبدايته. فقد ترافق إلقاء الشعر أمام الجمهور بالغناء، لقد كان هذا كلاماً إيقاعياً منغماً، أو «أُودا»[13]. ومن كلمة «أُودا» أخذوا ينطقون رابسوديا، وتراجيديا، وكوميديا. وإذا كانت كلمة «يتكلّم»[14] قد استخدمت في الأول فيما يتّصل «بالأسلوب» الشعري[1]، وإذا كان هذا الأسلوب قد ترافق لدى القدماء بالغناء، فإن مصطلح «يغنّي» عنى عندهم المعنى عينه الذي عنته كلمة «يتكلّم». ثمّ بعد أن استخدموا المصطلح الأوّل من هذين المصطلحين بمعناه غير الدقيق، لما يخصّ الكلام النثري، فإن هذا الاستخدام غير الدقيق انسحب على هذا الأخير أيضاً. وعدا عن هذا فإن حقيقة تسميتهم للكلام غير الإيقاعي «بالمعتاد»[16]، يدل على أنه قد هبط إلى الأرض من علياء، ما، أو من مركبة ما.

7- ولكنّ هوميروس لا يتحدّث على حدّ قول إيراتوسفين، عن البلدان المجاورة لليونان وتلك الواقعة فيها فقط، إنّما يتحدّث كذلك عن كثير من البلدان النائية؛ وفي عرضه للأساطير كان هوميروس أكثر دقّة من الكتاب الذين جاؤوا بعده، ذلك أنه لا

يرى في كلّ الأشياء معجزات، لكنّه في تقديم العبرة لنا يستخدم الاستعارة، ويعالج الأساطير أو يعمل على نيل رضا المستمعين، خاصة في قصة ترحال أوديسيوس، وعندما يتحدّث إيراتوسفين عن هذا الترحال، فإنه يقترف كثرة من الأخطاء، وهو يعلن أن الذين أوّلوا هوميروس، هم مجرّد ثرثارين بائسين، بل ويرى في هوميروس نفسه مجرّد ثرثار وحسب. لكنّ هذا يستحق أن نتحدّث عنه بتفصيل أكثر.

8- ينبغي عليّ أن أشير قبل كلّ شيء إلى أن صحّة الأساطير لم يقرها الشعراء وحدهم. فالدول والمشرّعون اعترفوا قبل الشعراء بزمن طويل، بالأساطير انطلاقاً من قناعتهم بفائدتها[17]، لأنها تفرست في طبيعة شعور الكائن البشري العاقل. فالإنسان يتميّز بحب المعرفة، وفي هذا تكمن محبته للقصص الميثولوجية، هذه المحبة التي تدفع الأطفال إلى أن يستمعوا، ثمّ تزيد مشاركتهم في هذه القصص أكثر فأكثر. ويكمن السبب هنا في أن الأسطورة تمثل بالنسبة إليهم لغة ما جديدة، لغة لا تتحدّث إليهم عن هذا العالم الواقعي، بل عن عالم آخر موجود إلى جانب هذا العالم. فجدّة الموضوع والتباسه، يحققّان المتعة. وهذا على وجه التحديد يوحي للإنسان بحب الاطلاع. وإذا انضمّ إلى هذا عنصر الدهشة أو الإعجاز، فإن متعة القصة تزداد شدّة، ويعد هذا بحد ذاته بمثابة مفتاح للتعلم. فلدى البدء بتعليم الصغار يكون استخدام مثل هذه الإغراءات أمراً ضرورياً، بيد أنه يجب مع تقدّم نموّهم، الاقتراب بهم إلى معرفة الأشياء الواقعية، لأنّ عقلهم يكون قد رسخ ولم يعد بحاجة إلى إغراءات. وكل جاهل يعدّ بمعنى ما طفلاً، وهو يحب الأساطير كما يحبها أي طفل. وهذا ما يتميّز به شبه المثقف أيضاً، لأنّ عقله ليس مكتمل النمو، زد إلى هذا أنه يحافظ على ملكة اكتسبها منذ الطفولة. ولكن بما أن العنصر العجيب في الأساطير لا يحقّق المتعة فقط، بل يوحي بالخوف أيضاً، فإننا نستطيع أن نستخدم هذا النوع من الأساطير أو ذاك للصغار والكبار. فنروي للأطفال الأساطير التي تمنحهم المتعة كي نشجعهم على فعل الخير، وتلك التي تدب الخوف في نفوسهم كي نردعهم عمّا هو سيّئ وشرير. ومن هذه الأساطير مثلاً أسطورة لاميا، وأساطير الغورغونا، وإيثالس ومورموليكا. إن الأساطير التي تمنح المتعة تدفع أكثر سكّان الدول إلى عمل الخير. وهذا ما يحصل عندما يستمع الناس هناك إلى قصص الشعراء عن المآثر الميثولوجية، كمآثر هرقل مثلاً، وثيسيوس أو الأمجاد التي وهبها له الآلهة، أو عندما يرون صوراً، وتماثيل أو منحوتات بدائية تمثل تبدلاً ما عكسياً، غير متوقع في مصير الأبطال الميثولوجيين. لكنّ هؤلاء الناس ينفرون من التصرّفات الشريرة، عندما يعرفون من الوصف أو عن طريق التصوير الرمزي للأشياء غير المرئية، بالعقاب الإلهي، والأهوال والمخاطر، أو عندما يوقنون بأن

أناساً قد عانوا هذه المحن. فعندما يتعامل الفيلسوف مع حشد من النساء، أو مع أي حشد آخر من العامّة، فإنه لن يكون بمقدوره إقناعهم بالحجج العقلية، ولن يكون قادراً على أن يزرع فيهم الإحساس بالفضيلة، والتقوى والإيمان: ثمّة في مثل هذه الحالة ضرورة للذعر الخرافي، ولن يكون الإيحاء به ممكناً إلا عن طريق القصص والمعجزات. فالصواعق، وإيجيدا، والحربة الثلاثية، والثيكليس، والتنانين، والرماح - الصولجان - سلاح الآلهة -، إن هذا كلّه حكايات خرافية، ومثله كلّ التعاليم القديمة عن الآلهة. ولكنّ مؤسّسي الدول اعترفوا بهذه الحكايات حكايات مقدّسة، وجعلوا منها شيئاً ما يشبه البعبع لكي يرسّخوا الخوف في قلوب البسطاء. وبما أن جوهر الميثولوجيا يكمن في هذا، وبما أنها تركت تأثيراً جيّداً على أشكال الحياة الاجتماعية والسياسية، كما على إدراك حقائق الواقع، لذلك حافظ القدماء على نظام تربيتهم لصغارهم حتّى بلوغهم سنّ الرشد: لقد رأوا في الشعر وسيلة تربوية كافية لتأدية المهمّة التربوية في كلّ سنّ. ولكن بعد مرور زمن طويل حل التاريخ والفلسفة المعاصرة على المسرح محلّ الشعر. بيد أن الفلسفة ليست متاحة إلا لبعضهم وحسب، بينما تفيد من الشعر جمهرة عريضة، كما يمكن للشعر أن يجذب الشعب إلى المسرح، وهذا ينسحب بأعلى درجة على شعر هوميروس. وقد كان أوّل المؤرّخين والفيزيائيين مؤلّفو أساطير أيضاً.

9- وبما أن هوميروس نسب أساطيره إلى ميدان التربية، فقد اهتمّ عادة بالحقيقة. لكنّ هوميروس «أولج هنا أيضاً» (الإلياذا XVIII، 541)، الكذب لكي يستميل الشعب ويجذبه إلى جانبه بالحيلة:

كما يوشّي الصانع الماهر الذهب البرّاق بالفضّة.

(*الأوذيسا* VI، 232)

لقد خلط هوميروس العنصر الميثولوجي بالأحداث الحقيقية، فأضفى على أسلوبه متعة وجمالاً. وعلاوة على هذا، فهو يشترك مع المؤرّخ ومع باسط الوقائع بالهدف نفسه. فقد أخذ على سبيل المثال، مشهداً من حرب طروادا- واقعة تاريخية- ووشّاه بأساطيره؛ وهذا ما فعله أيضاً في حكاية تيه أوديسيوس. ولكنّ اختلاق الخوارق على أساس باطل كلّياً، ليس من سمات إبداع هوميروس، فلا ريب في أنه يحدث لأحد ما أن ينظم ما يشبه الحقيقة، ما هو محتمل الحصول، إذا ما أضاف إلى الكذب شيئاً ما من الحقيقة نفسها، وهذا ما تحدّث عنه بوليبيوس لدى تحليله لتيه أوديسيوس. وهذا ما رمى إليه هوميروس عندما قال عن أوديسيوس:

كم من الكذب ادعاه لهم حقيقة خالصة،

(*الأوذيسا* XIX، 203)

فلم يقل هوميروس إن أوديسيوس ادعى الحقيقة «كلّها» كذباً، بل «كثيراً» منها، وإلاّ لما شابه كذبه «الحقيقة الخالصة». فقد أخذ أساس قصصه من التاريخ. فالتاريخ يروي مثلاً، أن إيولس الذي كان يحكم يوماً الجزر المتوضّعة حول ليبارا، وأن السيلكوب والليستريغون- قوم عدوانيون- كانوا يملكون الأرض المتوضّعة حول إيتاوليونتينا، ولذلك كانت المناطق المحيطة بالمضيق عصيّة على إنسان تلك الأزمنة، وكانت هاريبدس ورأس- كيليبوس تحت سيطرة قطاع الطرق. ويروي لنا التاريخ أن الشعوب الأخرى التي ذكرها هوميروس، كانت تستوطن أجزاء العالم الأخرى. وعلاوة على هذا، وانطلاقاً من معطيات حقيقية تفيد بأن الكيميريين عاشوا عند البسبور الكيميري، في الإقليم الشمالي المظلم، فنقلهم هوميروس تبعاً لذلك، إلى منطقة ما كئيبة مجاورة لهاديس، منطقة توافق القصص الميثولوجية عن تيه أوديسيوس. ويجادل مؤلّفو «الأسفار»[18]، بأن هوميروس كان يعرف الكيميريين، لأنّ تاريخ الاجتياح الذي قاموا به، يرجع إلى زمن هوميروس، أو إلى ما قبل زمنه بقليل، وربّما إلى الزمن الهوميري نفسه.

10- وعلى نحو مماثل، وبناء على معطيات حقيقية عن الكولخيين، وحملة ياسون على إيبا، واستناداً على معرفته بالقصص المختلقة والصحيحة عن كيركا وميديا (عن العقاقير السحرية والتشابه في الطابع ونمط العيش)، اختلق هوميروس آصرة قرابة الدم بينهما، مع أنهما عاشتا بعيدة واحدتهما عن الأخرى (واحدة في أقصى طرف من أطراف البونتس، والثانية في إيطاليا)، جعلهما معاً في منطقتين تقعان بعيداً في المحيط؛ وقد يكون ياسون وصل في ترحاله إلى إيطاليا. فثمّة إشارات تفيد بأن الأرغونيين وصلوا إلى الجبال الكيرافنية الواقعة على مقربة من البحر الأدرياتيكي، في خليج بوسيدونيوس والجزر الواقعة أمام تيرينيا. ولذلك فقد أعطت صخور كيانيس (التي تدعى أحياناً بالسيمبليغادس)، مادّة إضافية لهذه القصّة، لأنها تعيق كثيراً الإبحار في الخليج عند بيزنطا. وعليه، فإذا قارنت إيبا كيركا مع إيبا ميديا والبلانكتس الهوميريين مع السيمبليغادا، فإن إبحار ياسون عبر البلانكتس يبدو بدوره قريباً جدّاً من الحقيقة. ويبدو واضحاً أيضاً أن إبحار أوديسيوس بين الصخور كان ممكناً، إذا ما تذكّرنا سكيلاّ وكاريبودا. ومن جهة أخرى كانوا يتخيّلون بحر البونتس في زمن هوميروس، محيطاً آخر، وظنّوا أن الذين أبحروا فيه بعيداً قد خرجوا

إلى خارج حدود المعمورة، مثلهم مثل من أبحر بعيداً وراء أعمدة هرقل. فبحر البونتس كان يعدّ البحر الأكبر في الشطر المسكون من عالمنا، ولذلك دعي باسم خاص، هو «البونتس»، تماماً مثلما دعوا هوميروس باسم «الشاعر» وحسب. وربّما لهذا السبب نقل هوميروس الأحداث التي دارت إلى المحيط، مفترضاً أن مثل هذا التغيير سوف يبدو مقبولاً بسبب الاعتقاد السائد عن البونتس أنه المحيط، وأنا أرى، إنه بما أن السوليميين شغلوا قمم السلسلة الجبلية (أي المرتفعات المحيطة بليكيا وصولاً إلى بيسيديا)، وأن بلادهم كانت بالنسبة للشعب الساكن إلى الشمال من السلسلة الجبلية، خاصة بالنسبة لأولئك الذين كان يعيشون على مقربة من البونتس، بلاد المرتفعات الأكثر وضوحاً في الجنوب، لذلك، ونتيجة لبعض التشابه في الأوضاع، فقد نقل هوميروس هذا الشعب أيضاً إلى عمق المحيط. لأنه وهو يروي عن أوديسيوس الذي كان يبحر على طوف، قال:

في هذه الومضة ترك الجبّار الذي يؤرجح الأرض،
بلاد الإثيوبيين، ومن المرتفعات السوليمية
النائية رأى أوديسيوس.

(*الأوذيسا* V، 282)

وربّما يكون هوميروس قد اقتبس تصوّره عن السيكلوب ذوي العين الواحدة، من تاريخ السكيثيين، لأنه ثمّة خبر عن وجود شعب الأريماسبيين ذوي العين الواحدة، الذين نقل خبرهم أريستيوس البروكونيسي في ملحمته: «ملحمة الأريماسبيين».

11- بعد أن سجّلنا هذه الملاحظة التمهيدية، ينبغي أن نسأل، ماذا يعني التأكيد أن ترحال أوديسيوس كان بحسب هوميروس، في إقليم صقليا وإيطاليا. فوجهة النظر هذه يمكن أن تكون ذات مغزى مزدوج: المغزى الأكثر تعليلاً والمغزى الأقلّ تعليلاً. والرأي الأكثر تعليلاً، هو أن نوافق على أن ترحال أوديسيوس قد كان بحسب يقين هوميروس، في هذه الأقاليم، وأن الشّاعر إذ اعتمد هذه الفرضية على أنها حقيقة، عالجها معالجة شعرية. فآثار ترحال أوديسيوس وبعض الآخرين، موجودة لا في إيطاليا فقط، بل وفي أقصى أطراف إيبيريا أيضاً. أمّا الرأي الأقلّ تعليلاً، فهو أن نأخذ معالجة هوميروس للفرضية على أنها قصة وحسب، لأنه من الواضح أن الشّاعر يختلق الخوارق في قصصه عن المحيط، وهاديس، وثيران هيليوس، والضيافة عند الإلهات، ومسخ الكائنات، والسيكلوب العمالقة، ومنظر سكيلا، والمسافات التي قطعت أثناء الإبحار، وعن أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل. ولكنّ معارضة من مِن الواضح أنه يؤوّل هوميروس تأويلاً غير صحيح، أمر لا يستحق العناء، خاصة إذا ما زعم أحدهم أن

عودة أوديسيوس إلى إيثاكا، ومجزرة الخطّاب، والقتال الذي وقع بينه وبين الإيثاكيين في الحقل، قد جرى كلّه تماماً كما وصفه الشاعر. ومن جهة أخرى، فإنه من الخطأ أن تجادل من يؤوّل هوميروس على هواه.

12- ولكنّ إيراتوسفين ليس محقّاً في معارضة هذه المزاعم. ففيما يتعلّق بالزعم الثاني ليس إيراتوسفين محقّاً لأنه يحاول أن يدحض قصصاً من الواضح أنها مختلقة، مبتكرة ولا تستحق أي بحث مطوّل؛ أمّا ما يخصّ الزعم الثاني، فليس إيراتوسفين محقّاً لأنه يعلن الشعراء كلّهم ثرثارين، وأن اطلاعهم على الأماكن ومعرفتهم بالفنون لا تمنحهم أي أفضلية. وعلاوة على هذا، فإنه على الرغم من أن هوميروس لا ينسب مسرح عمليات أساطيره إلى أماكن موجودة فعلاً وحسب (مثل إيليون، وجبل إيدا، وجبل بيليون)، بل إلى أماكن مختلقة أيضاً (كتلك التي تعيش فيها الغورغونات أو الهيريون)، إلا أن إيراتوسفين يقول، إنه حتّى الأماكن المذكورة في قصة ترحال أوديسيوس، هي أماكن مختلقة، ويرى أيضاً أن رأي الذين يرون أنها أماكن حقيقية وليست مختلقة، تدحضه حقيقة الاختلاف بينهم هم أنفسهم. وعلى أيّ حال فإن بعضهم يوضّع السيرينيس عند رأس بيلوريادا، بينما يسكنهم آخرون عند سيرينوسا على بعد أكثر من ألفيّ مرحلة عن هذا المكان (السيرينوس هي صخرة لها ثلاث قمم، تفصل خليج كوسوس عن خليج بوسيدونيوس) بيد أنه ليس لهذه الصخرة ثلاث قمم، بل وهي ليست مرتفعة أصلاً (ليس لها قمّة)، لكنّها طويلة وضيّقة، وتدخل في البحر كأنها ذراع من منطقة سيرينت، حتّى مضيق كابري، وعلى جانبها الجبلي يقوم معبد السيرينيس، أمّا على الجانب الآخر المواجه لخليج بوسيدونيوس فتقع ثلاث جزر صحراوية صخرية تدعى السيرينيس؛ ويقوم عند المضيق مباشرة معبد أثينا، الذي أخذت «الذراع» نفسها اسمها منه[19].

13- ومع هذا، إذا كان الذين ينقلون إلينا هذه المعلومات عن الأماكن المعنية غير متفقين بعضهم مع بعض، فلا ينبغي علينا أن نرفض نحن هذه المعلومات جملة وتفصيلاً، ولكن يجب في بعض الأحيان أن نقبل الرواية كاملة. مثلاً، إذا طرح سؤال، هل كان ترحال أوديسيوس، في محيط سواحل صقليا وإيطاليا، وهل تقع صخور السيرينيس في مكان ما على مقربة؛ فمن يوضّع صخور السيرينيس على رأس بيلوريادا، لا يوافق الذين يوضّعونها على السيرينوس، ولكنّ الطرفين يتّفقان مع من يؤكّد أن صخور السيرينيس تقع على مقربة من صقليا وإيطاليا. وعلى الضدّ من هذا، إذ يجعلون من هذا الزعم الأخير زعماً معلّلاً أكثر، لأنه على الرغم من أنهم لا يوضّعون الصخور في المكان عينه، إلا أن هذا المكان لا يخرج إلى خارج حدود إيطاليا وصقليا. وإذا

أضفنا إلى هذا بعد ذلك، أنهم يقودونك في نابولي ليرونك قبر واحدة من السيرينيس، بارثينوبيا، فإننا نحظى بذلك على برهان مهم آخر، مع أننا إذ نسمّي نابولي، فإننا ندخل موقعاً آخر إلى دائرة النقاش. ثمّ، حقيقة أن نابولي تقع على هذا الخليج (الذي يدعوه إيراتوسفين خليج كومسك)، الذي تشكّله السيرينوس، يزيد من قناعتنا بأن السيرينيس كانت تقع على مقربة من هذه الأماكن. أمّا أن نعرف من الشّاعر التفاصيل كلّها، فهذا أمر غير ممكن، عدّاك عن إننا لا نطلب منه الدّقّة العلمية؛ ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نفترض بأن هوميروس قد ألّف على وجه العموم قصة ترحال أوديسيوس من غير أن يلتزم مكان حركته وكيفيتها.

14- ولكنّ إيراتوسفين يفترض، إن هسيود علم من الاستطلاعات، أن صقليا وإيطاليا كانتا مسرح ترحال أوديسيوس، وهو إذ صدّق هذا القول، لم يأت على ذكر الأماكن التي ذكرها هوميروس فقط، بل ذكر أيضاً إيتنا، وأورتيغيا (وهي جزيرة صغيرة تقع على مقربة من سيراكوزا)، وتيرينيا. وعلى الرغم من هذا يزعم إيراتوسفين، أن هوميروس لم يكن يعرف شيئاً عن هذه المواقع ولم يرغب في أن يوافق ترحال أوديسيوس مع الأماكن المعروفة. ولكن هل كان على علم بإيتنا وتيرينيا فعلاً، أمّا سكيليوس، وهاريبدس، وكيركا، وسيرينوس فإنها لم تكن معروفة قط؟ أم لم يكن قول الهراء واتباع التصوّرات السائدة، مما يتّصف به هسيود، بينما كان هوميروس «يهرف صاخباً بكل ما يرد على لسانه»؟ لأنه إضافة إلى ما قلته عن نمط الإبداع الميثولوجي الذي يتميّز به هوميروس، فإن أكثر الكتّاب الذين يتطرّقون إلى هذه الموضوعات نفسها، كما فعل هوميروس أيضاً، إضافة إلى كثرة من الحكايات الخرافية المحلّية، يمكن أن يبرهن لنا أن هذا ليس اختلاق شعراء، أو مؤرّخين، إنّما آثار أشخاص حقيقيين وأحداث حقيقية.

15- وبوليبيوس أيضاً يفهم قصة هوميروس عن ترحال أوديسيوس فهماً صحيحاً؛ فهو يقول، إن إيولس هو الإنسان الذي علّم البحارة كيف يختارون طريقهم في محيط مضيق ميسينا، حيث ثمّة مدّ وجزر متواصلان يجعلان الإبحار خطراً بسبب تشكّل الدوامات المائية، وقد دعي إيولس هذا سيّد الرياح، وعدّ ملكها، أمّا دانائي، فلأنه اكتشف المنابع السفلية للمياه في آرغوس، وكذلك آتريوس الذي اكتشف حركة الشمس المعاكسة لحركة السماء، فقد أعلن هذان المتنبّئان العرّافان ملكين[20]. وكان كهنة مصر وسحرتها، وكهنة الكلدانيين وسحرتهم، قد بلغوا السلطة والمجد لدى الشعوب التي عاشت قبلنا. وعلى هذا النحو، يقول بوليبيوس، إنهم عبدوا كلّ إله لأنه اكتشف شيئاً ما له منفعة للإنسان. وإذ اكتشف بوليبيوس هذا من

قبل، يؤكّد أنه لا ينبغي أن يعدّ إيولس أسطورة، ومثله ترحال أوديسيوس ككلّ؛ فالعناصر الميثولوجية الضعيفة أضافها الشاعر، بحسب بوليبيوس ، وهذا ما فعله أيضاً في قصة حرب طروادا ، أمّا مسرح عمليات الترحال، فقد وافقها هوميروس مع منطقة تقع غير بعيد عن صقليا ، وكذلك فعل الكتّاب الآخرون الذين اشتغلوا على الحكايات الإيطالية والصقلّية المحلّية. ولا يستحسن بوليبيوس إعلاناً مثل إعلان إيراتوسفين الذي قال فيه: «يمكنك أن تجد المكان الذي ارتحل فيه أوديسيوس، إذا استطعت أن تجد صانع الجلود الذي خاط كيساً للرياح». وبحسب بوليبيوس ، أن وصف هوميروس للصخرة يطابق تماماً ما يحدث في محيط صخرة سكيلييوس لدى صيد أسماك «الغاليوت»[21]:

تبحث ببراثنها في كلّ مكان من الصخرة التي
يغمرها البحر، تصطاد الدلافين، والفقمات...
والوحوش المائية الجبّارة.

(*الأوذيسا* XII، 95)

ثمّ يتابع بوليبيوس حديثه فيقول: «عندما تعوم أسراب أسماك التنّة يدفعها التيار، على طول شواطئ إيطاليا ، فإنها تقع في مجرى التيار المقابل المندفع من المضيق، وهي إذ تعوق صقليا طريقها ، فإنها تغدو فريسة الحيوانات الأكبر كالدلافين، وكلاب البحر، وسوى ذلك من الحيوانات البحرية التي تشبه الحيتان، وتلتفت «الغاليوت» (التي يدعونها أيضاً بالسمكة- السيف، وكلب البحر)، لتشترك بدورها في صيد أسماك التنّة[22]. وما يحدث هنا، وكذلك في أثناء فيضان نهر النيل وسواه من الأنهار المشابهة، يقع أيضاً لدى اشتعال حريق، أو إضرام النار في غابة، إذ تحاول الحيوانات التي تشكّل قطعاناً على وجه التحديد، أن تنجو من النار أو المياه، فتغدو فريسة للحيوانات الأقوى».

16- وبعد هذا يواصل بوليبيوس وصف صيد «الغاليوت» في محيط سكيليوس: يختارون مراقباً واحداً مشتركاً للصيادين كلّهم، بينما يستلقي هؤلاء مختبئين في كثرة من القوارب ذات المجدافين، اثنان في كلّ مركب؛ أحدهما يجدّف والآخر يقف على مقدّمة القارب وبيده حربة. وما إن يعطي المراقب إشارة عن ظهور الغاليوت (وتعوم هذه وثلث جسدها بارز فوق سطح الماء)، حتّى يندفع القارب نحوه، وعندئذٍ يطعن الصياد الرابض في مقدّمة القارب، السمكة بحربته، ثمّ يسحب ذراع الحربة ورأسها في داخل جسم السمكة، لأنّ رأس الحربة معقوف على شكل خطّاف، ومثبّت إلى الذراع تثبيتاً ضعيفاً عن سابق قصد، ومربوط إليه بحبل طويل. فيرخي الصيادون الحبل وراء السمكة المطعونة، بينما هي تصارع للإفلات، وتبقى على هذه الحال إلى أن تخور

قواها. عندئذٍ يسحبونها إلى الشاطئ أو يرفعونها على متن القارب، إذا لم تكن كبيرة جدّاً. وحتّى لو سقطت ذراع الحربة في الماء، فإنها لن تضيع، لأنها مصنوعة من خشب البلوط والشوح، بحيث لو غاص البلّوط في الماء، فإن الشوح يبقى طافياً الأمر الذي يجعل التقاط الحربة ثانية أمراً يسيراً. ويقول بوليبيوس: «يحدث أحياناً أن تقهر السمكة النوتي عبر قاع المركب، إذا كان سيف الغاليوت كبيراً جدّاً وحدّ سيفها حادّاً وقادراً على أن يجرح كناب الخنزير البرّي». وبحسب بوليبيوس أنه على أساس هذه الحقائق، يمكن أن نفترض أن يكون ترحال أوديسيوس قد دار بحسب هوميروس، هنا في محيط صقليا، لأنّ هوميروس ينسب إلى سكيليوس مثل هذا النوع من أنواع صيد الأسماك الذي يتميّز به سكيليوس. ويؤكّد هذا الافتراض أيضاً ما نقله هوميروس عن هاريبدس، التي تتوافق والظاهرات التي تحدث في المضيق. ولكنّ استخدام كلمة «ثلاث مرّات» بدلاً من كلمة «مرّتين» في قوله:

تقذف مرّات ثلاثاً كلّ يوم

(*الأوذيسا* XII، 105)

ما هو إلاّ خطأ الناسخ أو خطأ حصل أثناء مراقبة الحدث.

17- ويتابع بوليبيوس قائلاً، إن الأحداث الجارية في ميتينغ تتوافق مع ما ساقه هوميروس عن اللوتوفاغيين. ولكن حتّى لو كان هناك بعض التعارض، فينبغي أن يعزى للتغيّرات التي أدخلت إمّا بحكم عدم المعرفة أو عدم التقيّد بالأصول الشعرية، ويتمثل هذا في الجمع بين التاريخ والصيغة البيانية والأسطورة. فغاية التاريخ، هي الحقيقة؛ مثلاً، عندما يذكر الشّاعر في «لائحة السفن» الخاصيات الطبوغرافية لبعض الأماكن، فيدعو مدينة ما بالمدينة «الصخرية»، ويدعو الثانية «طرفية»، والثالثة مدينة «القطعان الجميلة الوديعة»، والرابعة «ساحلية». وغاية العرض البياني، هو الجلاء، مثلاً، عندما يخرج هوميروس الأبطال إلى المعارك. أمّا غاية الأسطورة، فهي الإمتاع، وإثارة الدهشة[23]. لكنّ الاختلاف دائماً غير مقنع، وهو ليس من سجايا هوميروس، فكلّهم يرى أن ملحمة هوميروس، هي مؤلَّف فلسفيّ، على الضدّ من رأي إيراتوسفين الذي يدعونا إلى تقويم الملاحم من حيث مغزاها، وألاّ نبحث فيها عن التاريخ. ويقول بوليبوس، إنه من المقنع أكثر أن نؤوّل قول الشاعر:

تسعة أيام حملتنا الرياح الحاملة الهلاك،

(*الأوذيسا* IX، 82)

إذا ما عزي إلى مسافة قصيرة (لأن «الرياح الحاملة الهلاك»، ليست كتلك التي «ترغم

السفينة على الإبحار في خطّ مستقيم»)، من أن نضع المشهد كلّه بعيداً في عمق المحيط، كأنّما هذه الكلمات تعني: «كانت الريح مواتية دائماً». إذا ما أخذنا بالحسبان أن المسافة بين رأس ماليوس وأعمدة هرقل هي 22.500 مرحلة، ويقول بوليبيوس: إذا افترضنا أنه تمّ اجتياز هذه المسافة في تسعة أيام بسرعة إبحار متماثلة، فإن المسافة التي كانت تقطعها السفن كلّ يوم، يجب أن تكون 2500 مرحلة. ولكن هل ثمّة من رأى يوماً أن المسافة بين هاتين هي 4000 مرحلة فقط؟ أمّا الذي يسأل أيضاً، وكيف تمكّن أوديسيوس أن يبلغ صقليا ثلاث مرات من غير أن يعبر المضيق، فإن بوليبيوس يجيبه، أن ذلك حصل للسبب عينه الذي جعل بحارة الأزمنة اللاحقة كلّهم يتفادون الإبحار في هذا المضيق.

18- وأقوال بوليبيوس هذه، بل وما قاله على وجه العموم، هو صحيح من حيث المبدأ. بيد أنه حينما يدحض الحجة التي تنقل ترحال أوديسيوس إلى المحيط، ويحاول أن يقيس بدقّة ترحال أوديسيوس لتسعة أيام، ويحدّد المسافة ذات الصلة، فإنه يلامس بذلك أقصى حدود السخافة. لأنه هو نفسه يسوق قول الشاعر:

تسعة أيام حملتنا العاصفة الهوجاء،

(*الأوذيسا* IX، 1)

وقوله:

على الجزيرة التي تحتضنها أوجيجيا،
محور البحر المترامي،

(*الأوذيسا* I، 50)

حيث تعيش بحسب قول الشاعر، ابنة أتلانتس؛ وفيما يخصّ الثياكيين:

... نعيش نحن
هنا، معتزلين الشعوب الأخرى، على أطراف
البحر الصاخب، ويندر أن يزورنا أحد من الناس.

(*الأوذيسا* VI، 204)

فهذا كلّه يشير إلى أن هذه الأحداث الخرافية كلّها، تجري في المحيط الأطلسي. ولكنّ بوليبيوس عندما لا يأتي على ذكر هذه الأقوال، فإنه يرفض بذلك القرائن الجليّة التي ساقها الشاعر؛ وهو في هذا يجانب الصواب؛ بيد أنه محق إذ يوافق ترحال أوديسيوس مع الأماكن المحيطة بصقليا وإيطاليا، وإشارات الشّاعر تؤكّدها التسميات الجغرافية التي تحملها تلك الأماكن؛ وإلاّ فأيّ شاعر، أو ناثر أقنع سكّان

نابولي بأن يدعوا شاهدة قبر، بنصب السيرينيس بارثينوبا، ومن ذا الذي دعا سكّان كوما، وديكيارخيا، وفيزوف إلى تخليد أسماء بيريفليهيثونس، وبحيرة أخيروسيا، وكاهن الموتى عند بحيرة أفيرن، وبايي، وميسين رفيقي أوديسيوس؟ كما يمكننا أن نطرح السؤال نفسه فيما يخصّ ما رواه هوميروس عن سيرينوسا، والمضيق، وسكيليوس، وهاريبدس، وإيولس، فنحن ينبغي علينا ألاّ نتعسّف في انتقاد هذه القصص، ونرميها كما لو أنه ليس لها جذور ومستند في التقليد المحلّي، ولا تطمح إلى الحقيقة وتقديم منفعة للتاريخ.

19- وعلى نحو مماثل شكك إيراتوسفين نفسه بهذا، لأنه يقول، إنه يمكن أن نفترض أن الشّاعر رغب في أن يجعل ترحال أوديسيوس في البلدان الغربية، إلاّ أنه تراجع عن مقصده هذا، ربّما بسبب قلّة المعلومات الدقيقة، وربّما لأنه لم يول اهتماماً للدقّة، بل آثر أن يطوّر كلّ محور نحو ما يثير الخوف الأكبر، وما يوحي بالإعجاز أكثر. إن إيراتوسفين يؤوّل طريقة هوميروس في الوصف تأويلاً صحيحاً، إلاّ أنّه لم يفهم دوافع الشّاعر فهماً صحيحاً. فهوميروس لم يبدع من أجل الثرثرة الفارغة، بل أبدع لكي يقدّم منفعة. وعليه فإنه ينبغي أن يلام إيراتوسفين على هذا، كما على زعمه أن قصص هوميروس الخرافية قد جرى تكييفها مع أصقاع نائية لكي يغدو من السهل، اختلاق الخوارق عنها. فبالمقارنة مع القصص الخرافية الأخرى التي تدور أحداثها في اليونان أو في البلدان المجاورة، لا تشكّل القصص المماثلة التي تنسب إلى البلدان النائية سوى عدد قليل جدّاً، منها على سبيل المثال قصص مآثر هرقل وثيسيوس، والأساطير التي تدور أحداثها في كريت، وصقليا وسواهما من الجزر: كيثيرون، وهيليكون، وبارناس، وبيليون ومختلف أرجاء أتيكا، والبيلوبونيز. وليس ثمّة من يتهم مبدعي هذه الأساطير بالجهل بسبب أساطيرهم هذه. عدّاك عن هذا، أنه بما أن الشعراء، خاصة هوميروس، لا يؤلّفون روايات ميثولوجية صرف البتّة، إنّما غالباً ما يضمّون العنصر الميثولوجي إلى الوقائع الحقيقية، لذلك فإن الباحث الذي يرغب في تحديد، أيّ العناصر الميثولوجية أضافها القدماء، لا يفكّر عمّا إذا كان العنصر المضاف عنصراً ميثولوجياً في زمن ما، أم أنه كذلك الآن فقط، بل يسعى إلى التحقّق مما إذا كانت الأماكن والشخصيات التي أضاف الشّاعر العنصر الميثولوجي إليها منشئاً بذلك الأساطير عنها، هي أماكن وشخصيات حقيقية. فمن الضروري أن نتحقّق مثلاً من ترحال أوديسيوس: هل حصل هذا الترحال فعلاً، وإذا كان قد حصل، فأين على وجه التحديد.

20- وعلى وجه العموم، من الخطأ أن توضّع ملحمتا هوميروس على مستوى واحد مع مؤلّفات الشعراء الآخرين، وألاّ تقرّ لهما أفضلية خاصة بالنسبة للميدان الذي

يهمنا الآن، أي ميدان علم الجغرافيا. فلو قرأنا «تريبتوليموس» سوفوكليس أو مقدّمة «باخوسيات» يوريبيدس وقارنّا الدقّة التي يتوخّاها هوميروس عندما يسوق وصفاً جغرافياً، فإن الاختلاف يتّضح بسهولة. ففي كلّ مكان يقتضي الأمر فيه التزام انتظام تعداد المواقع بالتتابع، نرى أن هوميروس يلتزم هذا النظام إن كان فيما يتعلّق بالمواقع الموجودة في اليونان، أو بتلك التي تقع خارجها:

يرفع أوسّا على الأوليميب القديم،
ويرمي بيليون الكثير الغابات على أوسّا

(*الأوذيسا* XI، 315)

وعلى حين غرّة اندفعت هيرا، تاركة قمم الأوليميب،
وعلى حين غرّة طارت فوق هضاب بيربيا، ووهاد إيماثيا،
ومرّت مسرعة عبر الجبال الثلجية، جبال التراقيين ذوي الخيل السريعة،
أعلى من جروف باروس، لا تلامس قدماها الأرض،
ومن قمّة آفوس الشامخ، انحدرت إلى البحر المتموّج

(*الإلياذا* XIV، 225)

وفي «سجلّ السفن»[24] لا يصف هوميروس المدن على التوالي، لأنّ ذلك ليس ضرورياً، إلاّ أنه يأتي على أسماء القبائل وفق التوالي الدقيق، وعلى النحو عينه يتعامل مع القبائل النائية:

رأيت قبرص، وزرت فينيقيا، وبلغت مصر،
وتوغلت إلى السود الإثيوبيين، ونزلت
ضيفاً على الصيدونيين، والإيريمبيين، وكنت
في ليبيا.

(*الأوذيسا* IV، 83)

وهذا ما نوّه به هيبارخ أيضاً[25]. ولكنّ سوفوكليس ويوريبيدس، حتّى حيث كان التوالي الدقيق ضرورة في التعداد: الأخير لدى وصفه وصول ديونسيوس إلى مختلف الشعوب، والأوّل لدى حديثه عن زيارة تريبتوليموس للأراضي التي بذر فيها، فإن الشاعرين جاورا بين أقاليم متباعدة، وباعدا بين أقاليم متجاورة:

وإذا تركت حقول ليديا الذهبية
ومزارع فريجيا وفارس، التي
تحرقها شمس الظهيرة،

وأسوار باكتريا وميديا،
وخبرت برد الشتاء، فقد زرت العرب.

(*يوريبيدس، الباخوسيات* 13)

وهـذا مـا يفعلـه تريبتوليمـوس أيضـاً. وعنـدما يتحـدّث هـوميروس عـن «الأقـاليم» والرياح، فإنه يظهر معارف أكثر في ميدان الجغرافيا، فلدى وصفه للمواقع غالباً ما يلامس الشّاعر هذه المسائل الجغرافية:

... وفي أقصى
الغرب تمتدّ إيثاكا منبسطة محاطة بالبحر.
أمّا الأُخر فأقرب إلى المنتهى، حيث إيوس وهيليوس يشرقان.

(*الأوذيسا* IX، 25)

أو:

... وفي المدينة مدخلان
[واحد فقط للناس]، يتّجه نحو بورياس
ونحو نوتوس، نحو الجنوب يتّجه

(*الأوذيسا* XIII، 109)

أو:

أتسرع الطيور يمينا نحو انبلاج الفجر وشروق الشمس،
أم يساراً تندفع ذات الريش نحو الغرب الكئيب.

(*الإلياذا* XII، 239)

وعـلاوة علـى ذلـك، يـرى هـوميروس أن الجهـل بمسـائل الجغرافيـا يسـاوي الإبهـام الكامل:

نحن لا نعرف، أيّها الأصدقاء، أين يمتدّ الغرب، وأين تظهر إيوس.
أين يهبط هيليوس ذو النور [تحت الأرض]

(*الأوذيسا* X، 190)

ويظهر هوميروس دقيقاً في مكان آخر:

صاخبة بورياس وزفيروس، كما لو أنها تهبّ من تراقيا...

(*الإلياذا* IX، 5)

ولما كـان إيراتوسفين قد فهم هـذا البيـت مـن الشـعر خطـأ، فقـد اتهـم هـوميروس بأنه يرى أن الرياح الغربية على وجه العموم تهبّ من تراقيا؛ ولكـنّ هـوميروس لا يتحـدّث

عن هذه الظاهرة بمعناها العام، بل يعزوها إلى اللحظة التي تتصادم فيها هاتان الريحان في خليج ميلانوس في البحر التراقي (جزء من بحر إيجة)؛ لأنّ تراقيا تنعطف جنوباً لتشكّل رأساً في النقطة التي تلتقي عندها مع مقدونيا، ثمّ تبرز في البحر. وهذا ما يخلق انطباعاً لدى سكّان فاسوس، وليمنوس، وإيمبروس، وساموتراقيا، وعلى البحر في محيط هذه الجزر، أن الريح الغربية تهبّ من تراقيا فعلاً، تماماً مثلما يهيأ لسكّان أثيكا أن هذه الريح تهبّ من صخور سكيرونوس؛ ولذلك تدعى الغربية، خاصة الشمالية الشرقية، «سكيرونوسية». بيد أن إيراتوسفين لم يفهم هوميروس في هذه النقطة، مع أنه خمّن المغزى الذي رمى إليه الشاعر. وعلى أيّ حال فإنه هو نفسه يصف منعطف الساحل الذي أتيت أنا على ذكره. وواقع الحال، هو أن إيراتوسفين يعتمد بيت الشعر المعني، ويؤوّله بمعناه العام، ثمّ يتّهم الشّاعر بالجهل، لأنه يرى أن الريح الغربية تهبّ من الغرب، من جهة إيبيريا، بينما لا تمتدّ تراقيا نحو الغرب كثيراً. ولكن، هل يعقل ألاّ يعرف هوميروس أن زفيروس تهبّ من الغرب؟ إن الشاعر يحتفظ لها بمكانها الخاص بها:

وعلى مقربة يفروس أيضاً، ونوتوس الظهيرة،

والجبّار - بورياس.

(*الأوذيسا* V، 295)

أم أن الشاعر لم يكن يعرف أن تراقيا لا تمتدّ غرباً وراء جبال بيونيا وتساليا؟ نعم، إنه يعرف البلاد التراقية ويدعوها باسمها الصحيح، كما يعرف أيضاً الإقليم الذي يجاورها، أي الساحل، وجزأها الداخلي، فهو يذكر الماغينتيين، والماليوسيين، ثمّ الهيلنيين وصولاً إلى بلاد الثيسبروتيين؛ وعلى النحو عينه الدولوبيين، والسيلوبيين الذين يستوطنون أطراف دودونا بجوار البيونيين، وصولاً حتّى نهر أخيلوس، مع أنه لا يذكر أن للتراقيين وجود أبعد نحو الغرب. أضف إلى هذا أن الشّاعر يذكر بتحبب ملفت، البحر الأقرب إلى وطنه، وهو البحر الذي يعرفه على أفضل وجه:

لقد نهض الشعب وماج، كالأمواج البحرية العملاقة

... على مياه البحر الإيكاري

(*الإلياذا* II، 144)

21- ثمّة بعض من الكتّاب يزعمون أن هناك ريحين رئيستين، هما بورياس ونوتوس، أمّا الرياح الأخرى فإنها لا تختلف عنهما إلاّ قليلاً من حيث الاتجاه. فإيفروس التي تهبّ من الجهة التي تشرق الشمس منها صيفاً[26]، وتهبّ أبيليوت من الجهة التي

تشـرق الشـمس منهـا شـتاء[27]؛ وتهـبّ زفـيروس مـن الجهـة الـتي تغيـب الشـمس فيهـا صيفاً[28]؛ وتهبّ أرجستوس من الجهة التي تغيب الشمس فيها شتاء[29]. ويسوق هـؤلاء برهـانهم علـى وجـود ريحـين فقـط، اعتمـاداً علـى فراسـيالك وعلـى الشّـاعر نفسـه، لأنّ هوميروس يجمع بين أرجستوس ونوتوس في قوله:

أرجستوس- نوتوس

(الإلياذة XI، 306)

كما يجمع زفيروس وبورياس في قوله:

صاخبة بورياس وزفيروس، كما لو كانتا تهبّان من تراقيا...

(الإلياذة IX، 5)

لكـنّ بوسـيدونيوس يقـول، إنّ أيّـاً مـن الشخصـيات المعترف لهـا في هـذا الميـدان (مـثلاً، أرسـطو، وتيموسـفين، وبيـون - أسـترولوغ)، لم يبـد مثـل هـذا الـرأي في مسـألة الريـاح. فهـؤلاء يزعمـون أن الـريح الـتي تهـبّ مـن جهـة شـروق الشـمس صـيفاً، تـدعى ليكيوس، أمّا الريح المعاكسة لها تماماً والتي تحمل اسم ليبوس، فهـي تهبّ من جهة غروب الشمس شتاء، وتدعى الريح التي تهبّ من جهة شروق الشمس شتاء، إيفـروس، وتعاكسـها الـريح الـتي تـدعى أرجسـتوس، أمّـا الريـاح الـتي تهـب بينهـا فهـي أبيليـوت وزفيروس. ثمّ يواصل هؤلاء قائلين، إنه عندما يتحدّث هـوميروس عـن «زفيروس الشـديدة شدّة مدمّرة» (الأوذيسا XII، 289)، فإنه يقصـد بـذلك الـريح الـتي نـدعوها أرجسـتوس، أمّـا الـريح الـتي يـدعوها هـوميروس «زفـيروس اللطيفـة الصـاخبة» (الأوذيسـا IV، 567)، فهي ما ندعوها نحن زفيروس أيضـاً، وأرجسـتوس - نوتـوس، هـي عنـدنا ليفكونوتـوس: إنها تثير سحباً ضعيفة، بينما تحمل نوتوس غماماً داكناً.

... كما تعتلي زفيروس الغيم وتسوق الغيوم،

كذلك تدحرها أرجستوس- نوتوس بعصفها

(الإلياذة XI، 305)

إن هوميروس، عندما يقول ذلك، إنّمـا يقصـد «زفـيروس الشـديدة شـدّة مـدمّرة»، والـتي تبـدد عـادة السـحب الخفيفـة الـتي تسـوقها ليفكونوتـوس، لأنّ الشّـاعر اسـتخدم كلمـة «أرجسـتوس» في هـذا البيـت نعتـاً. وتلكـم كانـت التصـحيحات الـتي كـان يجـب إجراؤها على ملاحظات إيراتوسفين في بداية كتابه «الجغرافيا».

22- ويواصل إيراتوسفين بعد ذلك إصراره على تأويله الخـاطئ لهوميروس، فهـو يزعم أن الشّاعر لا يعرف أيضـاً أن للنيل عـدداً مـن الفـروع عنـد مصبّه، كمـا لا يعـرف

الاسم الحقيقي للنهر[30]، مع أن هسيود يعرف، لأنه يذكر هذا. وفيما يتعلّق باسم النهر، فإني أظنّ أنه لم يكن قد استخدم في زمن هوميروس بعد، والأمر على نحو مماثل، إذا كانت حقيقة وجود عدد من الفروع عند المصبّ، وليس مصبّ النيل وحده، غير معروفة، أو كان يعرفها عدد محدود، فإنه يمكن عندئذٍ أن نسلّم بأن هوميروس أيضاً لم يسمع بهذا. ولكن إذا كان النهر فيما مضى، وهو الآن يعدّ من أشهر معالم مصر وأكثرها إثارة للدهشة، وهو بالتالي الأجدر بأن يذكر ويخلّد في التاريخ (وينسحب هذا أيضاً على فيضانه، وفروعه قبل المصبّ)، فمن يستطيع أن يفترض أن من روى لهوميروس عن نهر مصر وبلاد مصر، عن طيبة المصرية، وفاروس المصرية، إمّا أنهم لم يكونوا على علم بوجود هذه الفروع عند مصبّ النيل، أو إذا كانوا على علم بذلك ولم يذكروه، فإنهم فعلوا ذلك فقط لأنّ الأمر كان معروفاً ولا حاجة لذكره. ولكنّ الأمر الأكثر غرابة من هذا، هو أن هوميروس الذي أتى على ذكر الإثيوبيين، والصيدونيين، والإيريمبيين، والبحر الخارجي[31]، وقال إن الإثيوبيين «ينقسمون إلى قسمين»، من الغريب حقّاً ألاّ يعرف عمّا هو على مقربة ومعروف جيّداً. بيد أن حقيقة عدم ذكر الشّاعر لهذا، لا تعني أنه لم يكن يعرفه (فهو لم يذكر لنا وطنه، وأشياء أخرى كثيرة)، إنّما على الأرجح نستطيع أن نقول، إنه من وجهة نظره، لا حاجة لأن تذكّر عارفيّ الحقائق بما يعرفونه جيّداً.

23- ليس من العدل أن يلام هوميروس لأنه قال إن جزيرة فاروس «تقع في عرض البحر» (الأوذيسا IV، 355)، ونؤكّد بناء على هذا أنه قال ما قاله عن عدم معرفة. بل إن الأمر على الضدّ من هذا، إذ يمكن الإفادة من هذه النقطة لدى هوميروس كدليل على أن الشّاعر كان يعرف عن مصر كلّ ما قلناه نحن. ويمكننا أن نتحقّق من هذا على النحو الآتي. إن كلّ راو عن ترحاله مغرور متباه؛ وإلى هؤلاء ينتمي منيلاوس: لقد أبحر صاعداً مع النيل حتّى إثيوبيا، وسمع عن فيضان النهر وكمية الطمي التي يطرحها النهر في البلاد كلّ عام، كما سمع عن المدى الذي أضافه النهر بحمولته إلى الدلتا مضيفاً بذلك مساحة جيّدة إلى القارّة؛ ولذلك كان هيرودوت على حق عندما قال، إن مصر كلّها «هبة النيل»[32]. وإذا لم يكن هذا الحكم صحيحاً بالنسبة للبلاد كلّها، فإنه صحيح على الأقلّ بالنسبة لمنطقة الدلتا، التي تدعى مصر السفلى. لقد علم منيلايوس أن جزيرة فاروس كانت تقع قديماً في «عرض البحر». وها هو هوميروس يضيف عن ضلال، إنها لا تزال «تقع في عرض البحر»، مع أن الجزيرة لم تعد «في عرض البحر». وعلى أيّ حال، فإنّ الشّاعر أخضع هذه الرواية لمعالجة شعرية، وعليه، يمكننا أن نظنّ أنه كان يعلم بفيضان النيل، ويعرف بوجود فروع له عند مصبّه.

24- والخطأ نفسه يرتكبه الذين يزعمون أن هوميروس لم يكن على علم بالعنق الممتدّة بين البحر المصري والخليج العربي، وأنه يخطئ إذ يقول:

... بلاد الإثيوبيين النائية،

الناس الطرفيين القاطنين فريقين

(الأوذيسا I، 23)

وفي زمن لاحق ثمّة من لام هوميروس من غير حقّ، على هذا، فالشّاعر كان محقّاً تماماً. فحقيقة الأمر هي أنه من الخطأ أن نأخذ على هوميروس عدم علمه بالعنق المذكورة. ولذلك فإنني أؤكّد أن هوميروس لم يكن على علم بهذه العنق وحسب، بل وصفها بأوضح التعابير، وأن اللغويين بدءاً من أريستارخ وكراتيت - نجم هذا العلم -، لم يفهموا كلمات الشاعر. فالشّاعر يتحدّث عن بلاد:

[الإثيوبيين]، الناس الطرفيين، القاطنين فريقين

(الأوذيسا I، 23)

لكنّ العالمين لا يتّفقان على قراءة البيت الآتي. فأريستارخ يكتب:

... فريق حيث يغرب الإله الحامل النور،

والآخرون، حيث يشرق

(الأوذيسا I، 24)

ولكن فيما يتعلّق بالمسألة التي تثير الخلاف بينهما، فإنه سيّان أن يكتب هذا البيت على هذا النحو أو ذاك. فكراتيت إذ يستخدم صيغة برهان رياضي بسيطة، يقول، إن المحيط «يطوّق» المنطقة الحارّة[33]؛ فثمّة على جانبيّ هذه المنطقة، منطقتان معتدلتان: واحدة من جهتنا، والأخرى على الجانب الآخر من المحيط. ومثلما الإثيوبيون الذين يعيشون على جانب المحيط من جهتنا نحن، إلى الجنوب على امتداد المسكونة كلّها، ويدعون الأبعد عن إحدى مجموعات الشعوب (لأنهم يعيشون على سواحل المحيط)، كذلك نحن ينبغي علينا بحسب كراتيت، أن نتخيّل وجود إثيوبيين ما، على الجانب الآخر من المحيط، وهم الأكثر نأياً عن مجموعة الشعوب الأخرى التي تعيش في المنطقة المعتدلة الأخرى (لأنهم يعيشون على سواحل المحيط نفسه)، وعليه فإن هناك شعبين إثيوبيين «يقسمهما المحيط إلى قسمين». ويضيف هوميروس:

... وحيث يغرب الإله الحامل النّور،

والآخرون حيث يشرق،

(الأوذيسا I، 24)

لأن دائرة البروج السماوية تقع دوماً في السمت فوق دائرة البروج الأرضية التي توافقها؛ وبما أن هذه الأخيرة لا تخرج خارج حدود منطقة المجموعتين الإثيوبيتين، بسبب حركة الانحراف[34]، فإننا ينبغي أن نتخيّل أن طريق الشمس حتّى نهايتها، تمتدّ في المدى داخل حدود هذا الحزام السماوي، وبالنسبة لمختلف الشعوب، يقع شروق الشمس وغروبها باختلاف: أحياناً في هذه لعلامة الفلكية وأحياناً في تلك. ذلكم هو تفسير كراتيت الذي يعرض تصوّره غالباً كفلكيّ. بيد أنه كان بإمكانه أن يعبّر بطريقة أبسط، محافظاً في الآن عينه على فهمه لبيت الشعر الهوميروسي: «ينقسم الإثيوبيون إلى قسمين»؛ فقد كان يمكنه أن يقول، إن الإثيوبيين يعيشون على شاطئي المحيط حيث تشرق الشمس وحيث تغرب. فأين الخلاف من حيث المغزى، إذا ما قرأنا البيت كما يكتبه كراتيت، أو كما يكتبه أريستارخ:

... فريق حيث يغرب الإله الحامل النور،

والآخرون حيث يشرق.

(*الأوذيسا* I، 24)

فهذا يعني كذلك أن الإثيوبيين يعيشون على جانبيّ المحيط، غرباً وشرقاً. لكنّ أريستارخ يرفض فرضية كراتيت هذه، ويفترض أن قول هوميروس «ينقسمون إلى قسمين»، لا ينسحب إلا على الإثيوبيين القاطنين في الشطر الذي نقطنه نحن من العالم، أي الإثيوبيين الذين يقيمون بالنسبة للإغريق، في أقصى الجنوب. وهو يرى أن هؤلاء الإثيوبيين ليسوا منقسمين إلى قسمين يشكّلان إثيوبيتين: واحدة في الشرق، والأخرى في الغرب؛ وبحسب قوله، إنّ هناك أثيوبيا واحدة، هي تلك التي تقع إلى الجنوب من الإغريق، ممتدّة على طول حدود مصر. ويظنّ أريستارخ أن الشّاعر لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك، وكذلك شأنه بالنسبة للحقائق الأخرى (التي أشار إليها أبوللودوروس في الكتاب الثاني من مؤلّفه «بصدد دليل السفن»[35]، وبسبب عدم معرفته، اختلق معطيات عن هذا الموضوع لا وجود لها في الواقع.

25- إن معارضة كراتيت تقتضي منّي محاكمة طويلة لا علاقة لها بالموضوع الراهن الذي أنا بصدده. وأنا أوافق أريستارخ في رفضه فرضية كراتيت التي لاقت كثيراً من الاعتراضات، وأظنّ أنّ ما قاله هوميروس يخصّ أثيوبيا التي من جهتنا. أمّا الآن فلنتناول بالنقد موضوعاته الأخرى. وأن أوّل ما ينتقد فيه كراتيت، هو أنه يستغرق في محاكمات ضحلة عقيمة تتناول نصّ هوميروس؛ فلو كتب بيت الشعر المعني بأيّ من الطريقتين، لاستخلصنا منه المغزى المتوافق مع النص. وفي واقع الحال، ما الفرق بين أن

نقول: «ثمّة على الجانب الذي نحن فيه مجموعتان من الإثيوبيين، واحدة في الشرق، والأخرى في الغرب»، أو «كما في الشرق كذلك في الغرب». كما ينبغي أن ينتقد أريستارخ لأنه يدافع عن موضوعة باطلة. فلنفترض أن الشّاعر لم يكن على علم بوجود عنق اليابسة المذكورة، لكنّ حديثه عن الإثيوبيين ينسحب على إثيوبيا المجاورة لمصر؛ فهو يتحدّث عن

[الإثيوبيين]، القاطنين فريقين

(*الأوذيسا* I، 23)

وكيف ذلك؟ أو ليسوا على هذا النحو «منقسمين إلى اثنين» ثمّ قال الشّاعر ما قاله عن غير معرفة؟ أو ليست مصر والمصريون منقسمين بدءاً من الدلتا حتّى سيينا، إلى شطرين:

... فريق حيث يغرب الإله الحامل النور،
والآخرون حيث يغرب.

(*الأوذيسا* I، 24)

فما الذي تمثله مصر سوى الوادي الذي تغمره المياه؟ وهذا الوادي يتوضّع على ضفتي النهر شرقاً وغرباً. ولكنّ إثيوبيا تمتدّ وراء مصر مباشرة وتشترك معها في شروط متماثلة بالنسبة للنيل والخاصيات الطبيعية الأخرى التي يتميّز بها هذا الإقليم. فإثيوبيا، كما مصر، عبارة عن شريط ضيّق يمتدّ على طول الوادي، وتتعرّض مثلها للفيضانات، أمّا أجزاؤها التي تمتدّ خارج منطقة الفيضانات، فهي صحارى لا ماء فيها وليست مسكونة إلاّ فيما ندر، لا في الشرق ولا في الغرب. فكيف يمكن ألاّ تكون منقسمة إلى قسمين؟ أم أن النيل لا يشكّل حدّاً مقنعاً بالنسبة لأولئك الذين يضعونه بين آسيا وليبيا (لأن مجراه يمتدّ جنوباً في الوادي أكثر من 10.000 مرحلة، وهو عريض إلى درجة أنه يحتوي على جزر تسكنها أعداد كثيرة من الناس؛ وأكبر هذه الجزر جزيرة ميرويه، مقرّ الملك وعاصمة الإثيوبيين)، أو بات غير صالح لأن يقسم إثيوبيا إلى شطرين؟ عدّاك عن هذا أن من ينتقدون الذين يرون في النيل حدّاً يفصل بين القارّتين، يدفعون ضدّ خصومهم حجة مهمّة: إنهم يقسمون مصر وإثيوبيا إلى أجزاء وينسبون جزءاً من كلّ منهما إلى ليبيا، والجزء الآخر إلى آسيا؛ أو إذا ما عزفوا عن مثل هذا التقسيم فإنهم على وجه العموم لا يفرّقون بين القارتين، ولا يرون في النيل حدّاً يفصل بينهما.

26- بيد أنه يمكن تقسيم إثيوبيا بطريقة مغايرة تماماً. فكلّ من أبحر في المحيط على طول سواحل ليبيا، سواء انطلق من البحر أو من أعمدة هرقل، كان دائماً

يقطع مسافة محدّدة فتواجهه عقبات ترغمه على العودة من حيث أتى؛ لذلك تكوّنت قناعة لدى كثير من الناس، بأن عنقاً من اليابسة تمتدّ في وسط المدى. ولكنّ المحيط الأطلسي يمثل كلّه مدى مائياً واحداً، وهذا ما ينطبق خاصة على الشطر الجنوبي منه. وقد دعا هؤلاء البحارة كلّهم، البلدان الإثيوبية بالنقاط الأخيرة التي بلغوها في رحلاتهم البحرية، وخبّروا عنها على هذا النحو. فما الغريب في أن يقسم هوميروس الإثيوبيين إلى قسمين بعد أن ضلّلته مثل هذه الشائعات، فوضّع فريقاً من هذا الشعب شرقاً والفريق الآخر غرباً، لأنه لم يكن معروفاً أن ثمّة شعباً آخر يسكن بينهما. زد إلى هذا أن إيثور نقل رواية قديمة أخرى، وثمّة أساس يجيز لنا أن نظنّ بأنّ هوميروس قد سمع بها. فقد روى إيثور نقلاً عن التارتسيين، أن ليبيا تعرّضت لغزو الإثيوبيين الذين اجتاحوها حتّى ديريس، وقد بقي فريق منهم هنا وأقام في ديريس، واستولى الآخرون على شطر كبير من الساحل. ويزعم إيثور أن هذه القرينة، هي التي دفعت هوميروس لكي يقول عن الإثيوبيين:

[الإثيوبيون]، الناس الطرفيون، القاطنون فريقين.

(*الأوذيسا* I، 23)

27- إن معارضة أريستارخ وأنصاره أمر ممكن، كما يمكن أن نسوق حججاً أخرى مقنعة أكثر، ونجنّب بذلك هوميروس تهمة الجهل. فأنا أزعم مثلاً، أنه وفق تصوّر الإغريق القدماء، فإنهم كما دعوا سكّان بلدان الشمال الذين عرفوهم باسم واحد، هو «السكيثيون» (أو «النوماديون»، كما لدى هوميروس)، وعندما تعرفوا بعد ذلك إلى سكّان البلدان الغربية، دعوهم سلتيين، وإيبيريين، أو باسم مركّب، هو السلتو- إيبيريين، والسلتو- سكيثيين (لأن شعوباً اتحدت تحت اسم واحد بسبب جهلها بالحقائق)، كذلك أقول أنا، إن البلدان الجنوبية الواقعة وراء المحيط، دعيت كلّها باسم واحد، هو إثيوبيا. ودليلي على هذا، هو الآتي. يقول إيسخيليوس في «بروميثيوس طليقاً»[36]:

[أنت ترى] تيار البحر الأسود القرمزي المقدّس
والبحيرة التي تبرق بالنحاس،
عند المحيط الذي يمنح الإثيوبيين قوتاً،
حيث الشمس بعينها الرائية كلّ شيء دائماً
تمنح الجسد الخالد والجياد التعبة، الراحة
في تيارات المياه الدافئة اللطيفة.

(مقطع 92 ناوك)

إذا كان للمحيط مثل هذا التأثير على الشمس، وبينهما مثل هذه العلاقة على طول الحزام الجنوبي، فإنه من الواضح أيضاً أن إيسخيليوس أيضاً يسكن الإثيوبيين داخل نطاق هذا الحزام. ويقول يوريبيدس في «الثياتون»[37]، إن كليمينا أُعطيت

لميروب، سيّد هذه الأرض،
البلاد التي تقرن أولاً مع أربعة المركبة
ومنذ شروقه يصيبها هيليوس بشعلته الذهبية،
ويدعوها جيرانها السود البشرة سحراً، ويدعون
هيليوس المربط الساطع.

(*مقطع* 771، *ناوك*)

ينسب يوريبيدس إلى إيوس والشمس في هذا المقطع، مرابط مشتركة، أمّا في الأبيات اللاحقة، فهو يقول، إن هذه المرابط كانت تقع على مقربة من قصر ميروب؛ وواقع الحال، هو أن هذه الحقيقة الجغرافية قد أُدخلت كاملة نسيج بنية المسرحية، ليس لأنّ هذا، كما ينبغي أن نفترض، يعدّ سمة إثيوبيا الواقعة على مقربة من مصر، بل على الراجح، لأنّ هذا يعدّ سمة الساحل الممتدّ على طول الحزام الجنوبي.

28- كما ينقل إلينا إيثور التصوّر القديم عن إثيوبيا، ففي بحث له بعنوان «عن أوروبا»[38] يقول: «إذا قسمنا حقول السماء والأرض إلى أربعة أقسام، فإن الهنود سوف يشغلون الحقل الذي تهبّ منه أبيليوت، ويشغل الإثيوبيون الحقل الذي تهبّ منه نوتوس، والسلت الحقل الغربي، والسكيثيون الحقل الذي من جهة الريح الشمالية». ثمّ يضيف في السياق نفسه قائلاً، إن إثيوبيا وسكيثيا بلدان أكثر اتساعاً. ويقول: «أنا أفترض أن شعب الإثيوبيين يستوطن المدى الممتدّ بين جهة شروق الشمس وغروبها شتاء، بينما تقع سكيثيا في الجهة المقابلة شمالاً. وما يؤكّد أن هوميروس يشارك إيثور وجهة النظر هذه، هو ما يقوله عن موقع إيثاكا «بالاتجاه نحو الظلام» (الأوذيسا X، 26) (وهذا يعني نحو الشمال):

أمّا [الجزر] الأخرى فأقرب إلى المنتهى،
حيث إيوس وهيليوس يشرقان

(*الأوذيسا* IX، 26)

وهكذا يحدّد هوميروس الإقليم كلّه في جهة الجنوب:

أتسرع الطيور يميناً نحو انبلاج الفجر وشروق الشمس،

obeikandl.com

أم يساراً تندفع ذات الريش صوب الغرب الكئيب

(الإلياذا XII، 239)

ومن هذا البيت:

نحن لا نعرف، أيها الأصدقاء، أين الظلام، وأين تظهر إيوس،

أين يهبط هيليوس ذو النور تحت الأرض، وأين يصعد إلى السماء...

(الأوذيسا X، 190)

ولكنّني سأتحدّث عن مواقع هوميروس كلّها بصورة أكمل، عندما سأصف إيثاكا[40]. ولذلك عندما يقول هوميروس:

أمس مضى زيوس، حامل الصواعق، طاهراً إلى أمواج المحيط النائية، إلى وليمة عند الإثيوبيين

(الإلياذا I، 423)

فإنه ينبغي أن فهم كلمة «محيط»، أي ضخامة مائية مهولة تمتدّ على طول حزام الأرض الجنوبي[41]، وكلمة «إثيوبيين»، أي الشعب الذي يعيش في هذا الحزام، بالمعنى الأكثر عمومية. لأننا إذا ما نظرنا إلى أي نقطة كانت في هذا الحزام، نظرة ذهنية، فإننا نلقى أنفسنا دائماً في المحيط وفي إثيوبيا. وبهذا المعنى يجب أن نؤوّل كلمات هوميروس:

... ترك بلاد الإثيوبيين، ومن المرتفعات السوليمية

رأى [أوديسيوس في البحر].

(الأوذيسا V، 282)

إن هذا التعبير يماثل في المعنى، الكلمات «من البلدان الجنوبية»، لأنّ هوميروس لا يقصد السوليميين في بيسيديا، كما قلت من قبل[42]، إنه اختلق شعباً ما وحمّله الاسم عينه، ووضّعه في الموقع الجغرافي نفسه بالنسبة لأوديسيوس المبحر على طوف، وللشعوب الواقعة على جنوبه (الإثيوبيين، ربّما)، وهو الموقع نفسه الذي يشغله البسيديون بالنسبة للبونتس والإثيوبيون الذين يعيشون وراء مصر. وعلى نحو مماثل، وبالمعنى العام يتحدّث هوميروس عن الغرانيق.

في سعيها لتفادي عواصف الشتاء، والأمطار التي لا تنتهي،

تطير أسراباً نحو تيار المحيط المندفع، وهي تزعق،

مهددة بالقتل رجال البجم القصار القامة.

(الإلياذا III، 4)

فليسـت المسـألة هنـا في أن أسـراب الغرانيـق عنـدما تطـير جنوبـاً لا تُـرى إلاّ في اليونان، ولا تُرى أبداً في إيطاليا، وإيبيريا أو في إقليم بحر قزوين وباكتيريانا. فبما أن المحيط يمتدّ على طول الساحل الجنوبي، والغرانيق تهاجر شتاء إلى هذه البلدان كلّها، لذلك يجب أن نقبل بأن يشغل البجم في المثيولوجيا، هذا الساحل الجنوبي كلّه. وإذا كان الناس في زمن لاحق خصّوا الإثيوبيين الذين يسكنون في محيط مصر وحدهم برواية البجم، فإنه لم يكن من الممكن أن يكون لهذا أي علاقة بأحداث الأزمنة القديمة. فنحن الآن لا ندعو كلّ من شاركوا في الحملة على طروادا «آخيين» و«أرغيفيانيين»، مع أن هوميروس يدعوهم كلّهم بهذا الاسم. وما يشبه هذا هو ما أزعمه أنا عن تقسيم الإثيوبيين إلى فريقين: ينبغي أن تُفهم كلمة «إثيوبيين» بمعنى، أن هؤلاء انتشروا على طول ساحل المحيط ابتداء من جهة مشرق الشمس حتّى جهة مغربها. فمن الطبيعي أن يكون الإثيوبيون المقصودون هنا «منقسمين إلى فريقين»، يقسمهم الخليج العربي (كأنهم مقسومين بالقسم الأكبر من خطّ الزوال)، الذي يمتدّ مثله مثل النهر، بطول 15.000 مرحلة، وبعرض يصل أقصاه إلى ما يقارب 1000 مرحلة. وينبغي أن نزيد على الطول، المسافة التي تفصل بين منخفض هذا الخليج والبحر البيلوسي، وهي تشكّل مسافة ثلاثة أو أربعة أيام، وهي نفسها الامتداد الذي تشغله عنق اليابسة موضوع الخلاف. وعلى غرار ما يرى أكثر الجغرافيين ثقافة، أن هذا الخليج هو الحدّ الأكثر طبيعية من النيل ليشكّل حدّاً فاصلاً بين آسيا وليبيا (فبحسب رأيهم أن الخليج يكاد يصل بين بحر وآخر، بينما تفصل بين النيل والمحيط مسافة أكبر بكثير، ولذلك فهو لا يفصل آسيا تماماً عن ليبيا)، فإنني على هذا النحو نفسه أزعم، أن هوميروس يرى أن هذا الخليج «يقسم إلى شطرين» بلدان الجنوب كلّها على امتداد المسكونة. فكيف يمكن إذن ألاّ يكون الشّاعر على علم بوجود هذه العنق التي تشكّل الخليج العربي مع البحر المصري[43]؟

29- إنه من السخف تماماً الزعم أن هوميروس الذي كان لديه تصوّر دقيق عن طيبة المصرية (التي تقع على بعد يقلّ قليلاً عن 4000 مرحلة عن البحر المتوسّط)، ألاّ يكون على علم بمنخفض الخليج العربي أو بالعنق المجاورة له، والتي لا يزيد عرضها عن 1000 مرحلة؛ لكنّ الزعم الأكثر سخفاً هو الزعم الذي يقول، إن هوميروس الذي كان على علم بأن النيل الذي كان يحمل اسماً واحداً في بلاد على ذلك القدر من الكبر، كما هي مصر، لم يكن يعرف أسباب هذا. فالفكرة التي يمكن أن ترد إلى الذهن، هي على الأغلب، ما قاله هيرودوت[44]، عن أن مصر هي بلاد «هبة النهر»،

ولـذلك رأت أنهـا تسـتحقّ أن تحمـل والنهـر اسمـاً واحـداً[45]. وعلـى وجـه العمـوم، فـإن الخاصيات غير العادية لكل بلد، هـي خاصيات شائعة جدّاً ومعروفة لجميعهم. ومن معالم مصر المعروفة على هـذا النحو، فيضـان النيل وترسّب الطمـي النهـري في البحـر. فالذين يزورون مصر ويتعرّفون على البلاد، يعرفون قبل كلّ شيء السمات الطبيعية لنهر النيل، لأنه ليس لدى السكّان المحلّيين أيّ شيء جديد آخر يروون للأجانب عنه، سوى هـذه الخاصيات (فمن يتعرّف إلى النهر، يغدو واضحاً لـه تمام الوضوح، الطابع الجغرافي للبلاد كلّها)، وحتّى الذين يحصلون على معطيات عن مصر بالسماع من روايات الآخرين، فإن أوّل ما يعرفونه، هو هذه الحقيقة. وينبغي أن نضيف إلى هـذا كلّه، حبّ المعرفة لدى هوميروس، وشغفه بالترحال، وهذا ما رواه عنه كلّ من كتب عن حياته، كما يمكن أن نجد في ملحمتيه كثيراً من الأمثلة التي تشهد على وجود هذا الميل لدى الشاعر. وعلى هذا النحو يمكننا أن نسوق كثيراً من الحجج التي تبرهن على أن هـوميروس كـان على دراية كاملة، وأنـه تحدّث بوضوح عمّا كـان ينبغي أن يقـال، ولكنّـه صـمت عـن الإفصـاح عـن الموضـوعات المعروفـة، أو أنـه ألمح إلى هـذا باستخدام النعوت[46].

30- يثير استغرابي المصريون والسوريون الذين أناظرهم الآن، بأنهم لا يفهمون هوميروس حتّى عندما يتحدّث عن ظاهرات بلديهم، ويتهمونه بالجهل (والذنب في هذا ذنبهم هم، كما سأبيّن في حجتي الآن). فالصمت على وجه العموم لا يعني الجهل، فهوميروس لم يذكر قط المجرى العكسي لنهر يوريبس، كما لم يأت على ذكر ثرموبل، ولا على ذكر ظاهرات أخرى كثيرة معروفة جيّداً في اليونان، ومع ذلك فإن معرفته بهذه الحقائق كانت ممتازة. ولكنّ هوميروس يتحدّث عن موضوعات معروفة جيّداً، مع أن الناس الذين يلتزمون الصمت حيال هذا عن سابق قصد، يرفضون هذا. ولذلك فإن تهمة الجهل ينبغي أن توجه إليهم هم. وعليه فإنّ الشّاعر لا يدعو السيول الشتوية وحدها، «الأنهار الهابطة من السماء» (الإلياذا XVI، 174)، بل الأنهار كلّها كذلك، لأنها كلّها تتغذى بالأمطار. بيد أن الصفة المشتركة تتحوّل إلى صفة خاصة عندما يجري إلحاقها بالأشياء التي تتفوّق على ما عداها من أشياء النوع نفسه. فمن الممكن أن نفهم صفة «الأنهار الهابطة من السماء» أنها تعني سيل المطر، إلاّ أنه يمكن فهمها أيضاً بمعنى آخر، بمعنى النهر الدائم الجريان ومثلما تتراكم المبالغة فوق المبالغة (مثلاً، «أخفّ من ظلّ سدادة»، و«أجبن من أرنب فريجي»[48]، و«يملك أرضاً أصغر من رسالة لا كونيّة»)[49]، فإننا كذلك أمام حالة مشابهة من تراكم التفوّق فوق التفوّق،

عندما يسمّى النيل نهراً «هابطاً من السماء»، فالنيل بفيضانه الجبّار يفوق حتّى سيول الشتاء، لا من حيث الكثافة المائية فقط، بل من حيث استمرار الفيضان أيضاً. وبما أن الشّاعر كان على معرفة بنظام النهر، كما أشرت في معرض حديثي هذا، فقد ألحق هذه الصفة به، ونحن لا يمكننا أن نؤوّله إلاّ كما قلت آنفاً. بيد أن حقيقة جريان النيل في عدد من الفروع، هي سمة تجمع بينه وبين عدد من الأنهار الأخرى. ولذلك لم ير هوميروس أن هذه السمة تستحق منه التنويه، قاصداً بذلك الناس الذين يعرفون هذه الظاهرة. وعلى نحو مماثل تصرّف ألكييوس، فلم يذكر هذه الفروع، مع أنه يؤكّد أنه زار مصر[50]. أمّا فيما يتّصل بتراكم ترسّبات الطمي، فإنه يمكن الافتراض أنها لم تكن تنجم عمّا كان يحمله النهر فقط، إنّما أيضاً بفعل السبب الذي يشير إليه هوميروس بالنسبة لجزيرة فاروس، لأن الراوي الذي سمع منه هوميروس، أو بمعنى أدقّ، إن الشائعات العامّة كانت تفيد بأن الجزيرة كانت تقع عندئذٍ بعيداً جدّاً عن اليابسة؛ وأنا أقول، إن هذه الشائعات لم يكن لها أن تنتشر بتلك الصورة المحرّفة، كما ساقها هوميروس لدى حديثه عن مسافة تمتدّ طول إبحار يوم كامل بالسفينة. أمّا الفيضانات والطمي، فإن من الطبيعي الافتراض، أن الشّاعر قد أخذ علماً بهذا، كما بالحقيقة الشائعة عن أنه كان لهما مثل هذا الطابع نفسه تقريباً. ومن هنا استنتج هوميروس أن الجزيرة كانت حين زار منيلايوس مصر، أكثر بعداً عن اليابسة مما هي عليه في زمنه هو، وقد ضاعف المسافة أضعافاً لكي يضفي على قصته طابعاً أسطورياً. وغنيّ عن البيان القول، إن القصص الأسطورية ليست علامة من علامات الجهل، ينسحب هذا حتّى على حكايات بروتييوس والبجم، والتأثير الجبّار للعقاقير السحرية، أو سوى ذلك مما يختلقه الشعراء؛ فهؤلاء لا ينقلون مثل هذه الحكايات لأنهم لا يعرفون الجغرافيا، بل ينقلونها بغرض تحقيق المتعة للمستمع. فكيف إذن يقول هوميروس، إن في الجزيرة ماء، بينما الجزيرة خالية منه تماماً:

المرسى الثقة هناك يقع؛ الذي منه تخرج
إلى البحر السفن، التي تختزنها المياه الداكنة.

(*الأوذيسا* IV، 358)

أولاً، لا يمكن أن ننفي إمكانية أن تكون ينابيع المياه قد نضبت، وثانياً، لا يقول هوميروس، إنهم كانوا يأخذون الماء من الجزيرة، بل ما قال، هو أن السفن كانت تنطلق مبحرة من هناك، لأنّ المرسى كان ملائماً؛ أمّا الماء فقد كان يمكن استقاؤه من الضّفّة المقابلة، وقد ألمح الشّاعر إلى هذا عندما لم يستخدم تعبير في

«عرض البحر» بمعناه الحرفي لدى حديثه عن فاروس، بل بمعنى المبالغة وبأسلوب القصة الأسطورية.

31- ثمّ، بما أنه من الواضح أن قصة هوميروس عن ترحال منيلايوس تشي بدورها بالجهل بهذه البلدان، لذلك قد يكون من الأفضل أن نستبق الأمر ونعرض المسائل الإشكالية التي تطرحها هذه الأبيات، ثمّ بعد أن نجزئ هذه المسائل، ندخل بوضوح أكثر، ميدان الدفاع عن الشاعر. يقول منيلايوس لتيليماخوس الذي بهرته فخامة قصره:

... ما عانيته لم يكن قليلاً، وطوّفت كثيراً، وحملت من
الخيرات في السفن كثيراً، ثمّ عدت إلى موطني في العام الثامن
رأيت قبرص، وزرت فينيقيا، بلغت مصر، وأوغلت
إلى السود الإثيوبيين، حللت ضيفاً على الصيدونين،
والإيريمبيين، وكنت في ليبيا...

(الأوذيسا IV، 81)

والسؤال المطروح الآن، إلى أيّ الإثيوبيين جاء، إذ أبحر من مصر (فليس ثمّة إثيوبيون يعيشون على سواحل البحر المتوسّط، ومن المستحيل أن تعبر السفن عوائق نهر النيل). ومن هم هؤلاء الصيدونيون (فمن الواضح أن هؤلاء ليسوا أولئك الذين يعيشون في فينيقيا، لأنه لا يمكن للشاعر أن يضع النوع أولاً والجنس ثانياً)؟ ثمّ من هم هؤلاء الإيريمبيون[51] (فهو اسم جديد)؟ لقد أورد أريستونيك وهو لغوي معاصر لنا، رؤى كثير من المؤلّفين عن كلّ سؤال من هذه الأسئلة، في مؤلّفه «تطواف منيلايوس»[52]؛ لكنّني سأكتفي بالحديث عن هذا بإيجاز. فبعضهم إذ يزعم أن منيلايوس أبحر إلى إثيوبيا، يفترض أن إبحاره كان على امتداد السواحل عبر غاديرا وصولاً إلى الهند، ويزامنون الرحلة مع الفترة الزمنية التي يتحدّث عنها هوميروس: «... ثمّ عدت إلى موطني في العام الثامن» (الأوذيسا IV، 82)؛ ويفترض آخرون أنه أبحر عبر العنق الممتدّ في منخفض الخليج العربي، ويرى فريق ثالث أنه اجتاز واحدة من قنوات النيل. أولاً، ليست فرضية كراتيت القائلة بالإبحار على طول السواحل ضرورية، لا لأنها كانت غير ممكنة أصلاً (ففي مثل هذه الحالة كان ترحال أوديسيوس نفسه غير ممكن)، إنّما لأنها لا تتوافق مع فرضيات كراتيت الرياضية، ولا مع الزمن اللازم للرحلة. فصعوبات الإبحار نفسه أعاقت منيلايوس رغماً عنه (لقد قال هو نفسه، إنه لم يتبق معه من السفن الستين سوى خمس سفن)، كما كان يتوقف بين الحين والآخر بقصد الكسب. فنسطور يقول، إن منيلايوس:

وصـل، وجمـع ثروات بقدر ما حملت سفنه.

(الأوذيسا III، 301)

ورأى قبرص، وزار فينيقيا، ووصل حتّى مصر.

(الأوذيسا IV، 83)

لقد كان يمكن أن تعدّ الرحلة عبر العنق أو عبر واحدة من القنوات (لو ذكرها هوميروس)، مجرّد اختلاق، ولكن بما أن الشّاعر لا يشير إلى الرحلة أصلاً، فإنه يغدو من العبث والسخف أن نفترض وجودها. وأنا أرى أن هذه الرحلة رحلة سخيفة غبية، لأنه لم يكن ثمّة وجود لأي قنوات قبل حرب طروادا. وسيسوستريس الذي يروى أنه حاول أن يحفر قناة[53]، عزف عن هذا المشروع، لأنه ظنّ أن مستوى البحر المتوسّط مرتفع جدّاً. ومن البدهي أن العنق كانت عصيّة على عبور السفن، وزعم إيراتوسفين غير صحيح. فبحسب رأيه أن اليابسة عند أعمدة هرقل[54]، لم تكن قد انشقّت بعد، ولذلك فإن البحر المتوسّط الذي كان مستوى ارتفاعه أعلى، اتصل بالبحر الخارجي عند العنق وغمرها، ولكن بعد أن حصل الانفلاق عند أعمدة هرقل، انخفض مستوى ارتفاع البحر المتوسّط فبرزت اليابسة عند كاسيس وبيلوسيس وصولاً إلى البحر الأحمر. ولكن أين الشاهد التاريخي الذي يقول، إن انفلاق اليابسة عند أعمدة هرقل لم يكن قد حصل قبل حرب طروادا؟ قد يكون الشّاعر صوّر أوديسيوس مبحراً عبر مضيق أعمدة هرقل إلى المحيط (وكأنّ انفلاق اليابسة قد حصل)، ثمّ أرسل في الوقت نفسه منيلايوس على متن سفينة من مصر إلى البحر الأحمر (كما لو أن القناة لم تكن قد وجدت بعد)؟ ولكنّ هوميروس أخرج بروتيوس الذي خاطب منيلايوس قائلاً:

سوف يرسلك الآلهة إلى منتهى الأرض
إلى حقول الإيليزيه

(الأوذيسا IV، 563)

فأي «منتهى الأرض» هذا؟ إنه قصد بكلمة «منتهى» منطقة ما تقع في الجهة الغربية من العالم، وهذا ما يشير إليه ورود اسم زفيروس:

حيث تهبّ زفيروس اللطيفة الصاخبة، من المحيط
... مرسلاً إلى هناك.

(الأوذيسا IV، 567)

بيد أن هذه النظرية مليئة كلّها غموضاً.

32- وعليه، إذا كان الشّاعر قد سمع أن العنق كانت في زمن ما مغمورة،

أليس حري بنا أن نأخذ هذا أساساً لقبول تنويه هوميروس إلى أن مثل هذا الخليج الكبير قد فصل فعلاً بين الإثيوبيين و«قسمهم إلى فريقين». وأيّ كنوز كان يمكن أن ينالها منيلايوس من الإثيوبيين الذين يقيمون في تلك الأصقاع النائية على سواحل المحيط؟ ففي الوقت الذي دهش فيه تيليماخ ومرافقوه لفخامة القصر، دهشوا أيضاً لكثرة موجوداته:

كلّ شيء يبرق ذهباً، فضّة، كهرماناً، عاجاً.

(*الأوذيسا* IV، 73)

ولكن، ما عدا العاج ليس لدى هذه الشعوب أي وفرة من الأشياء الثمينة الأخرى، فأكثرهم من أفقر الشعوب، عدّاك عن أنهم بدو رحل. «وهذا ما يعارضونه، بحق، ولكن يضاف إلى هؤلاء أيضاً العربية والبلدان الأخرى وصولاً إلى الهند. ومن هذه البلدان فإن العربية وحدها تدعى «السعيدة»[55]، وثمّة حكايات عن الهند وتصوّرات تجعل منها البلاد الأكثر سعادة، مع أنهم لا يدعونها بهذا الاسم. ولكنّ هوميروس لم يعرف أيّ شيء عن الهند (وإلاّ كان ذكرها)؛ أمّا العربية التي يدعونها اليوم «سعيدة»، فقد كانت معروفة لديه. بيد أنها لم تكن في زمن هوميروس تتميّز بالثراء، بل على الضدّ من هذا، إذ كانت البلاد نفسها فقيرة، لأنّ أكثر سكّانها كانوا يعيشون في أكواخ. أمّا ذلك الشطر من العربية الذي ينتج العطور، فهو شطر صغير جدّاً؛ وهذا الشطر الصغير هو الذي منح البلاد اسم «السعيدة»، لأنّ مثل هذه السلع نادر وغال الثمن في الشطر الذي نعيش فيه نحن من العالم. ولا شك في أن العرب لديهم الآن كفاية، بل أغنياء بفضل حركة التجارة الواسعة التي لا تتوقف، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن كذلك في زمن هوميروس. وفيما يتعلّق بتجارة العطور، فإن مالك القوافل أو التاجر الذي يتاجر بها، يستطيع أن يجمع ثروة؛ أمّا منيلايوس فقد كان يحتاج غنيمة أو عطاءات ملوك وحكّام قادرين، وراغبين في أن يقدّموا له الهدايا إكراماً لمنشئه النبيل وإجلالاً لمجده الذائع. ومع ذلك، لم يكن المصريون وجيرانهم الإثيوبيون والعرب يعدمون وسائل العيش كاملة، كما هي حال الإثيوبيين الآخرين، وقد وصل إليهم صيت أمجاد الأتريوسيين، خاصة بعد النهاية الظافرة لحرب طروادا. ولذلك كان يمكن لمنيلايوس أن يستخلص منفعة من وجوده بين ظهرانيهم. قارن على سبيل المثال، ما قاله هوميروس عن درع آغاممنون:

الذي أهداه كينيراس له يوماً ما، إذ ضاف عنده،
لأن النبأ العظيم كان قد بلغ قبرص...

(*الإلياذا* XI، 20)

وإضـافة إلى ذلـك يجـب القـول، إن منيـلايـوس صـرف جـلّ وقتـه مبحـراً في محيـط فينيقيا، سوريا، مصر، ليبيا، وموضع ما على مقربة من قبرص، بـل علـى طـول سـواحل البحـر المتوسّـط وبين الجزر. فقد كـان منيـلايوس يستطيع أن يحصـل مـن هـذه الشـعوب، خاصـة حلفـاء الطـرواديين، علـى هـدايا للضـيوف، عنـوة وعـن طريـق الغـزو. أمّـا البرابـرة الـذين كـانوا يقطنـون خـارج حـدود هـذه البلـدان، فلـم يكـن أيّ منـهم يـوحي لمنيـلايـوس بمثـل هـذه الآمـال، ويقـول هـوميروس، إن منيـلايـوس «وصـل» إلى إثيوبيـا، لكنـه قصـد بذلك، أن منيـلايوس لم يصل إلى هناك فعـلاً، إنّمـا بلـغ حـدود البـلاد عنـد مصـر. فربّمـا كـانت الحدود عندئذٍ أقرب إلى طيبة (مع أنها تقع الآن أيضـاً علـى مقربـة)، وأنـا أقصـد هنـا الحـدود عنـد سـيينا وفـيلا. وتقـع الأولى مـن هـاتين المـدينتين في مصـر، أمّـا فـيلا فيقطنها إثيوبيون ومصريون. وعليه فإنه لـيس ثمّـة مـا يمنـع مـن أن يكـون منيـلايـوس قـد وصل فيلا، وبلغ مشارف المنطقة الحدودية الإثيوبيـة أو توغـل إلى أبعـد مـن ذلـك، خاصـة أنـه حظـي بضـيافة ملـك طيبـة[57]. وبـالمعنى نفسـه يقـول أوديسـيوس، إنـه «وصـل» بـلاد السيـكلوب، مـع أنـه عـبر مـن البحـر إلى الكـهف فقـط؛ فهـو يقـول: إنـه «ربّمـا كـان الكـهف يقـع علـى أطـراف»[58] البـلاد. ويقـول عـن بـلاد إيلـويس، وبـلاد الليسـتريغونيين وسوى ذلك من البلدان التي لم يرم فيها مرسـاته، إنـه «وصـل» إلى بـلاد كـذا... ولـذلك، بالمغزى نفسه [ينبغي فهم] «وصول» منيـلايوس إلى إثيوبيا[59]، وكـذلك إلى ليبيا، أي أنـه توقف عند بعض المواقع الساحلية. ولذلـك يـدعى المرسـى الـذي في أردانيـدس والواقـع إلى الأعلى من باريتون، مرسى منيـلايوس.

33- وإذا كـان هوميروس يذكـر في حديثـه عـن الفينيقـيين، الصـيدونيين الـذين يعيشون في عاصمة الفينيقيين، فإنه يستخدم المجازية المعتادة، مثلاً.

دنا [زيوس] والطرواديون وهكتور من معسكر الآخيين،
[وتركهم] عند السفن...

(الإلياذا XIII، 1)

و

لم يبق بعد في الدنيا أبناء يحملون عبء القتال عن إينياس،
وهو نفسه كان قد مات، ومات ملياغر الأجعد الشعر الوضاء،

(الإلياذا II، 641)

و

بلغ إيدا وغار غارا؛

(الإلياذا VIII، 47)

لكنّ شعوب إيبيا... ودخان أريتريا وخلكيدا؛

(الإلياذا II، 536)

وتقول سابفو:

أو تستبقيك قبرص أو بافوس،المرسى الملائم.

(مقطع 6)

ولكن يبدو أنه كان لدى هوميروس أساس مغاير دفعه (على الرغم من أنه كان قد ذكر فينيقيا)، لأن يكرر عن سابق قصد، ذكر فينيقيا، أي أن يضيف صيدون إلى اللائحة. لأنه لتعداد الشعوب بالترتيب، كان يكفي تماماً أن يقول:

وأوغلت إلى السود الإثيوبيين

(الأوذيسا IV، 83)

فلكي يبرز مكوث منيلايوس لدى الصيدونيين، كان ينبغي على هوميروس أن يعيد رواية قصته، أن يضيف إليها شيئاً ما. ويلمّح هوميروس إلى أن إقامة منيلايوس هذه، كانت مديدة أكثر، ومدح خبرة الصيدونيين في الحرفة وأثنى على كرم الضيافة الذي استقبلوا به قبل ذلك يلينا وألكسندر. ولذلك يتحدّث الشّاعر عن وفرة المصنوعات الصيدونية الموجودة في قصر ألكسندر:

لقد بقيت هناك عندها أردية بهية مزركشة
صنعتها النسوة الصيدونيات، حملها
ألكسندر شبيه الإله بنفسه من صيدون...
وبالطريق نفسها حمل يلينا النبيلة...

(الإلياذا VI، 289)

كما [كان ثمّة كنوز] في قصر منيلايوس، يقول منيلايوس لتيليماخ:

أعطيك الكأس الاحتفالية البهية، إنها كأس
من الفضّة كلّها، لكنّ حوافّها ذهبية من صنع
الإله هيفستوس؛ أهدانيها فيديم النبيل،
ملك الصيدونيين، عندما كنت عائداً إلى موطني،
وحللت ضيفاً عليه في بيته..

(الأوذيسا IV، 615، 115)

وينبغي أن نفهم قول هوميروس هنا: «من صنع الإله هيفستوس» على محمل المبالغة، تماماً كما يقولون عن الأشياء الجميلة أنها «من صنع أثينا»، أو الكاريتيس،

أو الميـوزات. فهـوميروس عنـدما أثنـى علـى الكـأس الـتي قـدّمت إلى إيفنيـوس فديـة ليكاون، أشار بوضوح إلى أن الصيدونيين كانوا فنانين مهرة.

جمالها الساحر شاع في المسكونة كلّها،

كؤوس شهيرة، عمل أنيق أبدعه الصيدونيون المهرة،

رجالها الفينيقيون... حملوها ليبيعوها.

(*الإلياذا* XXIII، 742)

34- لقد طرحت آراء كثيرة بصدد الإيـريمبيين؛ وعلـى الأغلـب أن الـذين رأوا أن هوميروس يقصد هنا العرب، هم علـى صـواب. بـل لقـد كتـب زينـون[60] في هـذا السـياق مصححاً النصّ:

لقد أوغلت إلى الإثيوبيين السود، حللت ضيفاً على

الصيدونيين، والعرب...

(*الأوذيسا* IV، 84)

بيد أنـه ليسـت هنـاك ضـرورة لإدخـال تغيير علـى الـنصّ، لأنّ قراءتـه قديمـة جـدّاً. فالإقرار بأن سبب الصعوبة هو تغيير اسم الشعب (إذ غالباً ما نلقى مثل هذا التغيير لـدى الشعوب كلّها)، أفضل مـن أن نغيّـر قـراءة الـنص (وهـذا مـا يفعلـه بعضـهم إذ يصـحّحون الـنصّ علـى حسـاب تغيير بعـض الأحـرف). لكنّنـا نـرى أن رؤيـة بوسـيدونيوس[61]، هـي الرؤية الأفضل بـين الـرؤى الأخـرى، لأنـه يخـرج اشـتقاق الكلمـات هنـا أيضـاً، مـن صـلة النسـب بـين الشـعوب، ومـن السـمات المشـتركة بينهـا. فـالأرمن، والسـريان، والعـرب يكشفون عن صلة نسب وثيقـة، لا في ميـدان اللغـة فقـط، بـل في نمـط العـيش، وتشـابه البنية الجسدية أيضـاً، خاصـة لأنهـم يسـكنون متجـاورين تجـاوراً مباشـراً. وبـلاد مـا بـين النهرين، حيث تقطن هذه الشعوب الثلاثة، تؤكّـد علـى صـحّة هـذا، فالتشـابه بـين هـذه الشـعوب ملحـوظ بوجـه خـاص. وإذا كـان ثمّـة تبـاين هنـا بـين شـعوب الشـمال وشـعوب الجنوب، تبعاً لدوائر الطول، أكبر بعض الشـيء مما بين هذين الشعبين والسريان الذين يشغلون مكاناً متوسّطاً، إلاّ أن السمات المشتركة بين الشعوب المذكورة، هـي الغالبـة مع ذلك. ويظهر الآشوريون، والآريان، والآراميون بعض التشـابه مـع الشـعوب المـذكورة، وبين بعضهم بعض. وفي واقع الحال، يفترض بوسـيدونيوس، أنّ بـين أسمـاء هـذه الشـعوب صـلة نسـب، فيقـول، إن تلـك الشـعوب الـتي نـدعوها نحـن شـعوباً سـوريّة، تـدعى باللغـة السـريانية، آريميّـة وآراميّـة؛ ويوجـد تشـابه بـين اسـم هـذا الشـعب الأخير واسـم الأرمـن والعرب، والإيريمب، لأنّ الإغريق القدماء ربّمـا يكونـون قـد دعـوا العـرب بهـذا الاسـم،

خاصة وأن علم اشتقاق الكلمات يؤكّد صحّة هذه الفرضية. وحقيقة الأمر أن أكثر العلماء يشتقّ اسم الإيريمبيين من eran embainein؛[62] ولكي يغدو هذا الاسم أكثر وضوحاً غيّره الناس بعد ذلك، إلى اسم آخر، هو «التروغلوديتيون»[63]. وهؤلاء هم قبيلة عربية تقطن على الجانب الآخر من الخليج العربي على مقربة من مصر وإثيوبيا. ثمّ يواصل بوسيدونيوس قائلاً، إنه كان من الطبيعي أن يذكر الشّاعر هؤلاء الإيريمبيين، إذ قال، إن منيلايوس «نزل» عندهم، قاصداً بهذا، المغزى عينه إذ قال، إن منيلايوس «وصل» إلى الإثيوبيين (فهم يقطنون على مقربة من منطقة طيبة). وعلى أي حال، لم يؤت على ذكر هؤلاء في سياق نوع نشاطهم أو المنفعة التي حقّقها منيلايوس منهم (فلم يكن لهذه المنفعة أن تكون كبيرة)، إنّما بسبب طول مدة المكوث [عندهم] والمجد الذي تأتّى عن ذلك. فمثل هذه الرحلة البعيدة حملت المجد بحدّ ذاتها. وهذا ما يقول به البيت الآتي:

زار كثيراً من الناس والمدن، ورأى عادات؛

(*الأوذيسا* I، 3)

و

... ما عانيته لم يكن قليلاً، وطوّفت كثيراً، وحملت
من الخيرات كثيراً...

(*الأوذيسا* IV، 81)

أمّا هسيود فيقول في «فهرسه»[64]:

وابنة العربي، ابن الوديع هرماأون وفرونيا،
ولديّ الرب بل.

[*مقطع* 23 (45)]

ويقول ستيسيخور الشيء نفسه. وعليه فإنه يمكننا أن نفترض أن هذه البلاد كانت تدعى العربية، في زمن هسيود وستيسيخور، نسبة إلى هذا العربي، مع أنها في الزمن البطولي قد لا تكون حملت هذا الاسم بعد.

35- إن الكتّاب الذين يختلقون شعباً ما خاصاً، إثيوبياً إيريمبياً، أو كيفينياً يشكّل شعباً آخر، أو شعباً من البجم يشكّل ثالثاً وكثرة أخرى، هؤلاء لا يستحقّون كثيراً من الثقة، لأنه عدّاك عن غرابة مثل هذا التفسير، يظهر لديهم إضافة إلى ذلك ميل للخلط بين الأسطورة والتاريخ. ومثل هؤلاء كتّاب آخرون يتحدّثون عن صيدونيين في الخليج الفارسي أو في مكان ما في المحيط أو ينقلون ميدان ترحال منيلايوس إلى

عـرض المحيط، وعلـى النحـو عينـه يوضّـعون الفينيقـيين بعيـداً في المحيط. كمـا يمثـل تناقض بعضهم مع بعض أساساً مهمّاً للريبة وعدم الثقة بما يطرحون. حتّى بعضهم يـزعم أن صـيدونيينا هـؤلاء هـم مـن المسـتعمرين الفينيقـيين في المحـيط، ويضـيفون أن سـبب تسميتهم فينيقيين[65]، هو اللون الأحمر للخليج الفارسـي؛ ويرى آخـرون أن الصـيدونيين في المحيط، هـم مستعمرون مـن فينيقيتـا. بـل هنـاك بعـض الكتّـاب الـذين ينقلـون حتّـى إثيوبيا إلى فينيقيتنا، زاعمين أن المغامرات الميثولوجية التـي قامـت بهـا أندروميـدا، دارت أحداثها في يوبا، مع أنهم لا يتحدّثون عـن هـذا بسـبب عـدم معـرفتهم بالمكـان[66] (الـذي وقعت فيه هذه المغامرات)، بل على الأغلب، لأنّ القصة تدور في صيغة ميثولوجيـة. وهـذا نفسـه ينسـحب علـى قصـص مـن هسـيود وسـواه مـن الشـعراء الآخـرين الـذين أتـى علـى ذكـرهم ديـودوروس، ولـيس لديـه حتّـى مجـرّد تصـوّر عـن كيفيـة التوفيـق بينهـا وبـين معطيـات هـوميروس. فـأبوللودوروس يقـارن بـين هـذه القصـص وأخبـار هـوميروس عـن البونتس ومصـر، فيتهم الشّـاعر بالجهل، علـى أسـاس أنـه راغـب في أن يقـول الحقيقـة، لكنّه لم يفعل، إلا أنه بسبب جهله عدّ الحقيقة بطلاناً. بيد أن أحداً لا يسـتطيع أن يـتهم هسيود بعدم المعرفـة عنـدما يتحـدّث عـن «أنصـاف كـلاب - أنصـاف بشـر»، وعـن «بشـر رؤوسـهم طويلـة»، وعـن «البـجم»؛ وكـذلك ينبغـي ألاّ يـتهم هـوميروس نفسـه بالجهـل لأنـه يسـوق مثـل هـذه القصـص الخرافيـة (وإلى هـذه الأخيرة تنتمـي قصـته عـن البـجم)؛ كمـا ينبغي ألاّ يتهم ألكمان أيضاً بسبب قصصه عن «البشـر الذين لهم أغشـية علـى أرجلـهم»؛ أو ايسـخيليوس بسبب قصصه عن «البشـر الذين لهم رؤوس كـلاب»، و«البشـر الـذين لهـم عيون على الصدر»، وآخرون لهم «عـين واحـدة»[67]. لأننـا لا نـولي كـبير اهتمـام لكتّـاب النثـر الـذين يكتبـون عـن موضـوعات كـثيرة في صـيغة ميثولوجيـة، حتّـى لـو لم يكـن يعترف لهم بأنهم يعملون في ميدان الأساطير. فيتّضح مباشـرة عنـدما يشـبكون الأسـاطير (في نصوصهم) عن سابق قصد، لا لأنهم لا يعرفون الحقائق، بل يختلقون الغرائب بهدف إشباع الميل إلى الإعجاز وتحقيق الإمتاع للمستمع. وينشـأ في غضـون ذلـك انطبـاع بـأن مـا يحـدث إنّمـا يحـدث بسـبب عـدم المعرفـة، لأنّ هـؤلاء الكـتّاب عنـدما يختلقـون مثـل هـذه الحكايات الخرافية عن الأشياء، إنّما يختلقونهـا بشـيء مـن المعقوليـة. فثيوبومبـوس يقـرّ صراحة بأنه سوف يسـوق أسـاطير في تاريخـه، وهـذه طريقـة في العـرض التـاريخي أفضـل مما لدى هوميروس، وكتيسيوس، وغالانيكوس، والمؤلّفين الذين وصفوا الهند[68].

36- ويجـري الحـديث عـن ظاهـرات المحيط عنـد هـوميروس بصـيغة الأسـطورة، لأنّ أسـلوب العـرض هـذا كـان ينبغـي أن يكـون هـو غـرض الشـاعر. فمـن ظـاهرة المـدّ

والجـزر في المحيط، استقى هـوميروس أسـطورة هاريبـدس، مـع أن هـاريبـدس نفسـها لم تكـن اختلاقاً كاملاً من عند الشاعر، إلاّ أن شخصيتها قدّمت بما يتوافق وحكايات مضيق صقليا. وإذا كان هوميروس يؤكّد أن المدّ والجزر يحصلان ثلاث مرّات في اليوم الواحد (مع أن هذا لا يحصل سوى مرتين)، بقوله:

... هاريبـدس
ثلاث مرّات في اليوم تبتلع وثلاث مرات تقذف
المياه السوداء.

(الأوذيسا XII، 105)

فإنه كان بإمكانه أن يعبّر على هذا النحو أيضاً؛ ونحن يجب ألاّ نظنّ أنه قال ما قاله لأنه لا يعرف الواقعة، بل لكي يولّد انطباعاً تراجيدياً ويثير الفزع: تثير كيركا بكلامها فزعاً شديداً لدى أوديسيوس، كي ترغمه على أن يرجع عن مقصده، ولذلك خلطت الحقيقة بالكذب. وعلى أي حال فإن كيركا ألقت أبيات الشعر عينها على النحو الآتي.

... هاريبـدس
ثلاث مرّات في اليوم تبتلع وثلاث مرّات تقذف
المياه السـوداء. لا تجـرؤ وتقترب حينما تبتلع.
فبوسيدون نفسه لن ينقذك عندئذٍ من الهلاك.

(الأوذيسا XII، 105)

لكنّ أوديسيوس ألفى نفسه هناك لحظة الابتلاع، وكما قال هو، فإنه لم يهلك.

وفي هذه الومضة أرغت لجة المياه المالحة؛
فأمسكت بشجرة التين النابتة هناك، ونجوت
تعلّقت بأغصانها كالخفاش ...

(الأوذيسا XII، 431)

ثمّ ترقب كسرات السفن إلى أن ظهرت في المكان، فتمسّك بها مرّة أخرى ونجا. وعلى هذا النحو فإن ما قالته كيركا لم يكن صحيحاً. وبما أنها كذبت في المرّة الأولى، فقد كذبت في الأخرى أيضاً: «ثلاث مرات في اليوم تبتلع» بدلاً من «مرّتين». ولكن هذا النوع من المبالغات شائع الاستخدام، فنحن نقول مثلاً، «المثلث الغبطة»، و«المثلث الشؤم». والشّاعر يقول:

دانائي السعيد ثلاثة أضعاف

(*الأوذيسا* VII، 306)

ويقول:

حلواً، مرغوباً ثلاثاً

(*الإلياذا* VIII، 488)

أو:

في ثلاث أو أربع قطع.

(*الإلياذا* III، 363)

ولعلّنا نستطيع أن نستنتج كذلك على أساس ما مضى من وقت، أن هوميروس قد ألمح بطريقة ما إلى الحقيقة، فواقعة بقاء حطام السفن طويلاً تحت الماء، ولم تقذف إلى أوديسيوس إلاّ بعد تأخير، بينما كان هو ينتظرها بفارغ الصبر، متمسكاً طول هذا الوقت بأغصان الشجرة، هذه الواقعة تتوافق أكثر مع فرضية حدوث المدّ والجزر مرّتين، أكثر من توافقها مع حصولهما ثلاث مرّات في المقطعين الزمنيين (أي نهاراً وليلاً):

هكذا انتظرت وأنا معلّقاً هناك من غير حركة، كي تحمل الأمواج بالصاري والسطح من اللجة، وبغمّ ليس له مثيل، انتظرت طويلاً - وقرب الساعة التي يمضي فيها القاضي منهكاً مساء من الميدان إلى بيته، بعد أن يكون قد قضى بدعوى الفتى، - طفت فجأة من هاريبدس العوارض المبتغاة.

(*الأوذيسا* XII، 437)

إن هذا كلّه يخلق انطباعاً بأن فاصلاً زمنياً طويلاً قد مضى وأن الشّاعر يحاول أن يجعل وقت المساء أطول، فهو لم يقل: «في الساعة التي ينهض فيها القاضي بعد الجلسة» على وجه العموم، إنّما أضاف «في الساعة التي ينهي فيها جملة من الدعاوى»، بالتالي فإن القاضي قد تأخر بعض الشيء. والاعتبار الآخر: وسيلة النجاة التي اقترحها الشّاعر على أوديسيوس الذي وقع فريسة كارثة بحرية، كانت ستكون غريبة لو لم يقذف المدّ البطل في كلّ مرّة مسافة إلى الخلف، قبل أن يتسنّى للجزر أن يحمله إلى مسافة بعيدة.

37- وبما يتوافق مع إيراتوسفين ومدرسته، كذلك ينتقد أبوللودوروس كاليماخ لأنّ هذا الأخير- وهو عالم لغوي- يرى أن غاود[69] وكوركيرا هما المكانان

اللـذان طـاف فيهمـا أوديسـيوس. إن رؤيـة كـاليمـاخ هـذه تتعـارض مـع المقصـد الأسـاس لهرميروس، وهو نقل أماكن ترحال أوديسيوس التي ذكرها، إلى المحيط. ولكن إذا لم يكـن هـذا لترحـال قـد حـدث أصـلاً، وأن هـذا كلّـه لـيس سـوى اختلاق جـاء بـه هـوميروس، عندئذٍ سيكون أبوللودوروس محقّاً في انتقاده؛ أمّا إذا كان الترحال قد حصل، ولكن في أماكن أخرى، فينبغي على أبوللودوروس أن يقول لنا في الحال، في أيّ أماكن، ويصحح بذلك خطأ كاليماخ. ولكنّ القصة على وجه العموم لا يمكن أن تكون مختلقة كلّها (كما أشرت من قبل)[70]، ولكن بما أنه يتعذر ذكر أسماء أيّ مواقع أخرى يمكن الركون إليها، فإنه ينبغي إعفاء كاليماخ من هذه التهمة.

38- وليس ديميتري السكيبسيسي غير محقّ في هذه المسألة وحسب، بل كان رأيه سبباً لبعض الأخطاء التي ارتكبها أبوللودوروس، لأنّ ديميتري رفض بحماس رأي نيانتس الكيزيكي الذي قال، إن الآرغونيين أقاموا وهم في طريقهم إلى فاسيس (وقد أجاز هذا الإبحار هوميروس والكتّاب الآخرون)، مذبحاً للأمّ الإيدية[71]، على مقربة من كيزيك، وقال، إن هوميروس لم يكن على علم البتّة برحلة ياسون إلى فاسيس. وهذا الزعم لا يناقض ما قاله هوميروس وحسب، بل يخالف ما قاله ديميتري نفسه؛ فديميتري يقول، إن أخيلليس نهب ليسبوس والأماكن الأخرى، إلاّ أنه عفا عن ليمنوس والجزر المجاورة احتراماً لرابطة النسب بينه وبين ياسون وابنه إيفينوس الذي كان يحكم جزيرة ليمنوس عندئذٍ. فكيف إذن يمكن أن يكون الشاعر، وهو يعرف أن أخيلليس وياسون قريبان، من أرض واحدة، أو جاران، أو أي صديقين كانا (وليس لهذه القرابة من تعليل سوى أنهما تساليان- أحدهما من يولك والآخر من ثتيوتيدا الآخية) ومع ذلك لم يعرف كيف خطر لياسون التسالي، مواطن يولك، ألاّ يستبقي في وطنه وريثاً، لكنّه يجعل ابنه حاكماً على ليمنوس. لقد كان هوميروس يعرف بلياس وبنات بلياس والأكثر نبلاً منهن - ألكيستا وابنها:

... وقادهم إيفميوس
بن أدميتوس، المحبوب، الذي أنجبه من ألكيستا،
زوجته الرائعة، الأكثر سحراً بين بنات بلياس.

(*الإلياذا* II، 714)

وهل يعقل ألاّ يكون قد سمع عن مغامرات ياسون، وعن الآرغو والآرغونيين (وهذه حقائق يقرّ بها جميعهم)، بل اختلق قصة الإبحار من بلاد إيتوس إلى المحيط من غير أيّ أساس تاريخي لقصته هذه؟

39- وكما يتّفق جميعهم، فإنّ ابتداء الإبحار إلى فاسيس بأمر من بلياس، ثمّ العودة واحتلال الجزر (مهما كان أمد العملية طويلاً) في أثناء الإبحار على طول الشواطئ، ينطوي على عنصر ما من المعقولية. وأنا أزعم أن إبحار ياسون إلى مسافات أبعد (مثله مثل إبحار أوديسيوس ومنيلايوس)، هو أمر معقول إلى حدّ ما، وهذا ما يؤكّده وجود آثار تستحق الثقة، لا تزال قائمة حتّى يومنا هذا، كما تؤكّده أيضاً كلمات هوميروس. فعلى مقربة من فاسيس يرونك مدينة إيبيا، ويقرّ جميعهم بحقيقة أن إيتوس ملك في كولهيدا، أمّا اسم إيتوس[72]، فهو من الأسماء الشائعة لدى سكّان تلك البلاد. عدّاك عن هذا أن الساحرة ميدييا تعدّ شخصية تاريخية، وثروات البلاد المحلّية التي تتألّف من مناجم ذهب، وفضّة، وحديد، ونحاس توحي بالدافع الرئيس للحملة، وهذا ما دفع فريكس إلى أن يمضي في حملة إلى هناك قبل ذلك. وعلاوة عى ذلك كلّه فإنّ آثار الحملتين موجودة هناك: معبد فريكس[73] الذي يقع على الحدود بين كولهيدا وإيبيريا، ومعبد ياسون الذي يرونه لك في كثير من أنحاء أرمينيا وميديا والبلدان المجاورة لهما. وإضافة إلى هذا يقولون، إنه ثمّة قرائن كثيرة لحملة ياسون وفريكس في منقطة سينوبس والسواحل المجاورة، وفي محيط بروبونتيدا واللهلسبونت، وصولاً إلى كريت، وإيطاليا، والبحر الأدرياتيكي، وقد أشار كاليماخ إلى بعض هذه الآثار:

رأيت إيغليتوس[74]، أناثا، المجاورة لثيرا اللاكونية،

وفي المرثاة التي مطلعها:

أنا أتغنّى، كيف أبحر الأبطال من مملكة إيتوس الكينتي،
عائدين إلى هيمونيا القديمة

ويتحدّث كاليماخ عن الكولهيين في مكان آخر فيقول:

وعند البحر الإيلليري وضعوا المجاديف،
حيث يستلقي حجر قبر هارمونيوس الأجعد الشعر
هناك أسّسوا مدينة صغيرة، وهي ما كان سيدعوه
الإغريقي «مدينة المنفيين»، واسمها بلغتهم بولا.

ويزعم بعضهم أن ياسون ومرافقيه صعدوا مع نهر إيستر إلى مسافة طويلة؛ ولكنّ آخرين يقولون، إنهم وصلوا البحر الأدرياتيكي. وقد قال هؤلاء الأوّلون ما قالوه عن غير معرفتهم بالأماكن، وبحسب زعم الأخيرين، أن نهر إيستر يخرج من الإيستر الأكبر ويصبّ في البحر الأدرياتيكي، وعلى أيّ حال ليس في أقوالهم ما هو غريب وغير ممكن.

40- وعلى هذا النحو يكون هوميروس باستخدامه هذا النوع من المعلومات، قد ساق قصته بما يتوافق والمعطيات التاريخية، إلاّ أنه أضاف العنصر الأسطوري إلى هذا، وقد التزم في ذلك تقليداً مشتركاً بين الشعراء كلّهم، كما اتبع تقليده هو نفسه. فعرضه الذي قدّمه جاء متوافقاً مع الأخبار التاريخية، عندما يذكر إيتوس، يتحدّث عن ياسون والآرغو، وعندما يختلق إيبيا إلى جانب إيوس ويوضّح إيفينوس في ليمنوس، واصفاً هذه الجزيرة العزيزة إلى قلب أخيلليس، وعندما يصنع لميدييا شبيهة، هي الساحرة كيركا

... الإلهة، شقيقة إيتوس صانع المكائد

(الأوذيسا X، 173)

فهو ينسج العنصر الميثولوجي في القصة، إذ ينقل الترحال إلى عمق المحيط، بعد الرحلة إلى بلاد إيتوس. فنحن إذا ما قبلنا الحقائق المذكورة، عندئذٍ تصحّ أيضاً كلماته.

... آرغو التي مجّدها كلّهم

(الأوذيسا XII، 70)

لأنه من المفترض أن تكون أحداث الحملة قد دارت في بلدان معروفة جيّداً وفيها كثافة سكّانية ملحوظة. أمّا إذا كان الأمر على النحو الذي يزعم ديميتري السكيبسيسي معتمداً على سمعة ميمنيرموس (يوضّح ميمنيرموس مقرّ إيتوس في المحيط شرقاً، وراء حدود المسكونة، زاعماً أن بلياس أرسل ياسون إلى هناك، وقد أتاه هذا بالجزّة الذهبية من تلك البلاد)، فإن الحملة في سبيل الحصول على الجزّة الذهبية، تغدو غير معقولة (لأنها حصلت في بلدان مبهمة وغير مرئية)، هذا أولاً، وثانياً، لا يمكن ألاّ تكون الحملة التي اجتازت صحارى ومناطق غير مأهولة، وبعيدة هذا البعد كلّه عن شطر الكون الذي نعيش فيه نحن، لا يمكن ألاّ تكون حملة شهيرة «يمجّدها كلّهم». يقول ميمنيرموس:

وياسون نفسه لم يكن له أن يرجع يوماً
بالجزّة من إيبيا، قاطعاً طريقاً مليئة بالآلام.
وإذ يؤدّي لبلياس الجبّار درساً قاسياً،
لم يكن ليستطيع أن يبلغ مياه المحيط الرائعة يوماً.

ثمّ يقول:

إلى مدينة إيتوس، إلى هناك، حيث خيوط

الشمس السريعة جاءت لترتاح ليلاً في ربوعه
الذهبية، عند شواطئ المحيط، إلى حيث جاء
ياسون الإلهي.

(مقطع 10، برغك)

الفصل الثالث

1- ليس إيراتوسفين محقّاً إذ يتحدّث بالتفصيل عن أناس لا يستحقون أن يؤتى على ذكرهم، فينتقدهم في سياق ما، ويمنحهم ثقته في سياق آخر، بل يلجأ إلى سمعتهم أحياناً، كما هي حاله مع داماستوس ومن على شاكلته مثلاً. لأنه إذا كان لدى هؤلاء بذرة من حقيقة، فإنه لا ينبغي مع ذلك الاستناد إليهم أو منحهم الثقة بسبب ذلك. فمثل هذا الأسلوب يجب اتباعه حيال الذين يستحقون، الذين ساقوا كثيراً مما هو صحيح، بصرف النظر عن أنهم أسقطوا من حسابهم كثيراً من الحقائق أو عرضوها بطريقة سطحية غير معللة، إلاّ أنهم لم يسوقوا أي معلومة باطلة عن سابق معرفة ببطلانها. إن اللجوء إلى سمعة داماستوس ليس أفضل بكثير من استخدام شهادة انتيفان البيرغي أو الميسّني، وإيفجيميروس وسواهما من الكتبة الآخرين، الذين يقتبس إيراتوسفين نفسه نصوصهم لكي يسخر من ضحالة آرائهم. فقد نقل إيراتوسفين نفسه واحدة من قصص داماستوس الغبية، التي رأى فيها أن الخليج العربي بحيرة، وأن ديوتيم ابن سترومبيخوس عندما كان على رأس السفارة الأثينية صعد مع نهر كيدن من كيليكيا إلى نهر خاوسب الذي يجري على مقربة من سوزا، ووصل بعد أربعين يوماً إلى هذه الأخيرة؛ ثمّ يقول إيراتوسفين، إنّ ديوتيم نفسه روى هذا كلّه لداماستوس. ويضيف إيراتوسفين، إن داماستوس يعبّر عن دهشته، إذ كيف يمكن لنهر كيدن أن يقطع الفرات ودجلة ليصبّ في خاوسب.

2- ويمكن أن نلوم إيراتوسفين لا على مثل هذه الروايات فقط؛ فهو يزعم أن زمنه لم يعرف معلومات تفصيلية ودقيقة عن البحار، ثمّ يدعونا في الوقت نفسه إلى ألاّ نأخذ بأيّ خبر غير مؤكّد تأتي به مصادر عرضية، ويعرض بإسهاب للأسباب التي تدعو إلى عدم الثقة بأيّ من أولئك الذين يكتبون قصصاً ميثولوجية عن البلدان الواقعة على سواحل البونتس الإيفكسيني والبحر الأدرياتيكي؛ ولكنّه هو نفسه يصدّق قصص أوّل من يلقاه. فقد أخذ على سبيل المثال بالرواية التي تقول، إن خليج إيس على البحر المتوسّط، هو آخر نقطة بحرية شرقاً، بينما خليج ديوسكوريادس الواقع في

أقصى زاوية البونتس الإيفكسيني، يقع على مسافة 3000 مرحلة شرقي خليج إيس، حتّى لو أخذنا بحساب إيراتوسفين نفسه للمراحل التي يتحدّث عنها. ولدى وصفه للأطراف الشمالية والأطراف القصوى من البحر الأدرياتيكي، لم يدع إيراتوسفين أي خرافة جانباً. فقد صدّق كثرة كثيرة من القصص الخيالية التي كانت تروى عن البلدان الواقعة وراء أعمدة هرقل، وجاء في أثناء ذلك على ذكر جزيرة باسم كيرنا، كما ذكر أيضاً بلداناً أخرى لا وجود لها الآن في أيّ مكان، وسوف أتحدّث عن هذا في مكان آخر. ومع أن إيراتوسفين قال، إن الإغريق القدماء قاموا برحلاتهم البحرية بهدف النهب والتجارة، ولكن ليس في البحر، إنّما على امتداد السواحل، كما فعل ياسون مثلاً، إذ ترك سفنه وانطلق من بلاد الكولهيين في حملة وصل فيها إلى أرمينيا وميديا، لكنّه قال بعد ذلك، إنّ أحداً في الزمن القديم لم يجرؤ أن يبحر في البونتس الإيفكسيني، ولا على سواحل ليبيا، وسوريا، وكيليكيا. وإذا كان يقصد بكلمة «القدماء» أولئك الناس الذين عاشوا في الأزمنة الغابرة، فنحن لسنا نحتاج أن نتحدّث عنهم، ولا عمّا إذا كانوا قد قاموا برحلات بحرية أم لا. أمّا إذا كان إيراتوسفين يتحدّث عن الناس الذين ورد ذكرهم في الروايات الأسطورية، فإنه يمكننا القول من غير تردد، إن القدماء قاموا برحلات برّية وبحرية أبعد من تلك التي قام بها ناس الزمن الأحدث، إذا كان ينبغي أن نأخذ بالحسبان مثل هذه الروايات فقط: ديونيسيوس على سبيل المثال، وهرقل، وياسون نفسه، عدّاك عن أوديسيوس ومنيلايوس اللذين تحدّث هوميروس عنهما. وربّما كان ثيسيوس وبيريفوي قد تجاسرا بدورهما على رحلات بعيدة وخلّدا اسميهما بزعم أنهما نزلا إلى هاديس، أمّا الديوسكوري فإنهما للسبب نفسه نالا اسم «الحارسين في البحر» و«منقذيّ البحارة». زد إلى هذا أن حكاية سيطرة مينوس على البحر[1]، وشائعات رحلات الفينيقيين[2] (الذين جابوا بعد حرب طروادا بقليل، البلدان الواقعة وراء أعمدة هرقل وأسّسوا فيها مدناً، كما أسّسوا مثلها في وسط الساحل الليبي)، لاقت شهرة واسعة. أفلا ينبغي أيضاً أن نعدّ إينياس، وأنتينور، والإينيت، وكل الذين شرّدتهم حرب طروادا على وجه العموم، أناساً من الزمن القديم؟ فإغريق ذلك الزمن، ومثلهم البرابرة، فقدوا بسبب الحرب كلّ ما يملكون وما غنموه بالحرب. ولذلك لم يلجأ المنتصرون وحدهم بعد هلاك طروادا، إلى ممارسة القرصنة البحرية بسبب الفقر، بل كان المهزومون الذين نجوا من الحرب أكثر نشاطاً في هذا الميدان. وبحسب الرواية أن هؤلاء الأخيرين أسّسوا مدناً على امتداد الساحل خارج حدود هلاّدا، وفي بعض الأماكن داخل البلاد.

3- وبعد أن يروي إلى أيّ حدّ تقدّم في معرفة المسكونة جيل ما بعد الإسكندر، وناس عصره أيضاً، ينتقل إيراتوسفين إلى مسألة شكل الأرض، لكنّه لم يرم إلى مفهوم الأرض بمعنى المسكونة (وهو ما كان أكثر ملاءمة لمؤلّفه المكرّس لهذا الموضوع)، بل قصد به الأرض ككلّ. وغنيّ عن البيان القول: إن هذه المسألة خاضعة للنقاش، ولكن في مكانها. وهكذا بعد أن قرر أن الأرض كروية الشكل (والحقيقة أنها ليست كروية كما لو أنها قدّت على مخرطة الخشّاب، إنّما فيها بعض الانحناءات على سطحها الكروي)، حمّلها كثيراً من الانحرافات المتتالية عن الشكل الصحيح نتيجة لتأثير المياه، والنار، والهزّات الأرضية، والثورات البركانية وما شابه من الأسباب الأخرى؛ وهنا أيضاً لم يلتزم إيراتوسفين بالترتيب الواجب. فالشكل الكروي الذي تتسم الأرض به ناتج على وجه العموم عن بنية الكون، وكما يشير إيراتوسفين، فإن مثل هذه التغيّرات لا تؤدّي إلى تغيير الأرض على وجه العموم (فمثل هذه التغيّرات الطفيفة في الأجسام الكبيرة لا أهمية لها)، إلاّ أنها تجرّ وراءها أكثر فأكثر حالات جديدة بالنسبة إلى المسكونة، والأسباب المباشرة التي تستدعيها، هي أسباب مختلفة.

4- وعلى حدّ ما يقوله إيراتوسفين بعد ذلك، فإنه ثمّة مسألة تتطلّب دراسة خاصة، وهي لماذا تتجمّع في كثير من الأماكن داخل القارّة وعلى بعد ألفين إلى ثلاثة آلاف مرحلة عن البحر، كمية كبيرة من الصدف ذي المصراعين، والصدف الجندفلي، الصدف ذي العرف، كما تتواجد هناك الأخوار، كما في ضواحي معبد أمون مثلاً، وعلى امتداد الطريق المؤدية إليه على طول 3000 مرحلة [3]. فثمّة في هذا المكان على حدّ قوله، ترسّبات كبيرة من الصدف الجندفلي؛ كما يمكن أن نجد هناك الآن طبقات ومجار من المياه البحرية الصاعدة إلى علوّ ملحوظ؛ وعلاوة على ذلك يرونك هناك حطام سفن بحرية انقذفت بحسب روايات السكّان المحلّيين، عبر واحد من الشقوق أو قذفتها الدلالفين التي رسموا صورها على أعمدة صغيرة حملت أيضاً نقوش إهداء من سفراء قورينا المقدّسين. وإذ يروي إيراتوسفين هذا، يسوق برضا رأي الفيزيائي ستراتون[4] وكسانثوس الليدي. وعلى حدّ قول كسانثوس، فإنّ عهد أرتاكسيراكس عرف فترة جفاف قاس إلى الحد الذي جفّت عنده الأنهار، والبحيرات، والآبار، وقد تأتّى له هو نفسه أن يرى بأم عينه في كثير من الأماكن البعيدة عن البحار- في أرمينيا، وماتينا، وفريجيا السفلى- حجارة على شكل صدفات ذات مصراعين، وصدفات ذات عرف، وآثار هذه الأخيرة، وآثار أخوار، ولذلك أطلق قناعته بأن هذه السهول كانت في يوم ما بحراً. ثمّ يستحسن إيراتوسفين رأي ستراتون الذي يقترب من دراسة الأسباب أكثر. وبحسب ستراتون، أن البونتس الإيفكسيني لم

يكن له من قبل منفذ عند بيزنطة، ولكنّ الأنهار التي تصبّ في البونتس، حفرت معبراً تدفقت المياه عبره إلى البروبونتيدا والهلسبونت. والظاهرة نفسها حدثت بحسب ستراتون، في البحر المتوسّط. ولكنّ المضيق عند أعمدة هرقل، قد اجترف في هذه الحالة، بعد أن امتلأ البحر بمياه الأنهار، وفي أثناء الجزر كانت المياه تغدو ضحلة. وبحسب ستراتون أن السبب في هذا يرجع أولاً، إلى اختلاف المستوى بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسّط، ثانياً، إلى أن الحوض المائي عند أعمدة هرقل لا يزال حتّى الآن يميل عرضاً من أوروبا نحو ليبيا، وهذا ما يشير إلى أن البحر المتوسّط والمحيط الأطلسي لم يكونا من قبل بحراً واحداً. ويواصل ستراتون قائلاً، إنّ بحار حوض البونتس قليلة العمق، بينما بحر كريت، وبحر صقليا، وبحر سردينيا بحار عميقة جدّاً، ولكن بما أن الأنهار الجارية من الشمال والشرق كثيرة جدّاً، وكبيرة جدّاً، فإن بحار حوض البونتس تمتلئ بالطمي، وتبقى البحار الأخرى عميقة. وفي هذا يكمن سبب كون مياه بحر البونتس المياه الأقلّ ملوحة، وسبب اتجاه تياره نحو العمق[5]. ووفق ستراتون، إن البونتس كلّه سوف يمتلئ لاحقاً بالطمي إذا ما استمرّ تدفّق تلك الرواسب، بل الآن باتت مناطق الجانب الأيسر من البونتس ضحلة، كما هي حال ساليمدس مثلاً، والمنطقة القريبة من مصبّ نهر إيستر التي يدعوها البحارة «أثداء»، والصحراء السكيثية. وقد يكون معبد آمون أيضاً، الذي كان يقع قبلاً على شاطئ البحر، قد بات الآن في وسط البلاد نتيجة لحصول جزر في مياه البحر. ويفترض ستراتون أن كاهن آمون المتنبّئ قد حظي على أرجح تقدير، بمثل هذه الشهرة العريضة والمجد الرفيع لأنه كان يقيم على ساحل البحر؛ أمّا إقامته الآن، البعيدة جدّاً عن البحر، فإنها لا تقدّم تعليلاً معقولاً لشهرته ومجده؛ ومصر كان يغمرها البحر قديماً حتّى مستنقعات منطقة بيلوسي، وجبل كاسي وبحيرة سيربون. ويعثرون في مصر حتّى الآن أثناء استخراج الملح، على تجويفات مليئة بالرمل، وصدفات متحجرة، توشي بأن البلاد كانت يوماً ما مغمورة بمياه البحر، وأن كلّ المنطقة المحيطة بجبل كاسي وما يسمّى جيرا كانت عبارة عن مستنقع كان متصلاً بخليج البحر الأحمر؛ وبعد أن تراجع البحر، ظهرت اليابسة في هذه المناطق، لكنّ بحيرة سيربون بقيت؛ ثمّ شقّت هي بدورها طريقها إلى البحر وتحوّلت إلى مستنقع. وعلى هذا النحو فإن سواحل ما يسمّى بحيرة ميريدا تشبه السواحل البحرية أكثر مما تشبه ضفاف الأنهار. وعليه فإنه يمكننا أن نسلّم بأن شطراً مهمّاً من القارّة كان مغموراً يوماً ما بالمياه لطور زمني محدّد، ثمّ ظهر ثانية؛ وعلى النحو عينه يمكننا أن نسلّم بأن سطح الأرض كلّه، المغمور الآن بالمياه، هو عبارة عن تعرّجات على قاع البحر، تماماً كما أن شطر الأرض الذي فوق سطح

البحر، والذي نعيش نحن عليه، خاضع لكثير من التبدلات، كما يؤكّد إيراتوسفين نفسه. وعلى هذا النحو فإن حجج كسانثوس ليس فيها ما يمكن أن ندعوه سخيفاً.

5- بيد أنه يمكن توجيه اللوم إلى ستراتون لأنه على الرغم من وجود كثير من الأسباب الحقيقية للتحريفات الواردة، إلاّ أنه لم يلحظها وقدم أسباباً لا وجود لها. فالسبب الأوّل على حدّ قوله، هو الفرق في المستوى والعمق بين البحر المتوسّط والمحيط الأطلسي. لكنّ ما يتعلّق بارتفاع البحر وانخفاضه، وإغراقه لبعض المناطق ثمّ تراجعه عنها، فإنه لا ينبغي البحث عن سبب هذه الظاهرات في اختلاف مستوى القاع - تارة أكثر انخفاضاً، وتارة أكثر ارتفاعاً - إنّما في حقيقة أن قاع البحر نفسه يرتفع تارة وينخفض أخرى، ومعه يرتفع البحر وينخفض، فلدى ارتفاع مستوى البحر، يغمر الماء الشاطئ، ولدى انخفاضه تعود المياه إلى مستواها السابق. وإذا كانت رؤية ستراتون هذه صحيحة، فإنّ أيّ زيادة مفاجئة لكتلة الماء في البحر ينبغي أن تترافق بالفيضان، كما في أوقات المدّ البحري العالي مثلاً، أو فيضان الأنهار، وفي غضون ذلك فإن الماء ينتقل في الحالة الأولى من القسم الآخر من البحر، أمّا في الحالة الثانية، فإن كتلة الماء [ببساطة] تتضاعف. ولكن تضاعف كتلة الماء في الأنهار لا يحدث على حين غرّة (فيثير تضخم البحر)، فلا تستمرّ حالة المدّ زمناً كافياً لحدوث ذلك (فالمدّ يحدث بشكل منتظم)، ولا يُحدث فيضانات في البحر المتوسّط ولا في غيره من الأماكن الأخرى. ولذلك يبقى لنا أن نعترف بأن سبب التغيّرات[6]، هو الأساس الصلب للبحر، أو على الأرجح القاع الذي تحت الماء، أو ما يقع تحت البحر، أو ما تغمره المياه لبعض الوقت. فالأرض المشبعة بالماء هي أكثر خفّة، وتحرّكاً وعلى الأغلب أنها أكثر عرضة للتغيّرات، لأنّ عنصر الهواء المضغوط[7]- وهو السبب المباشر لمثل هذه الظاهرات، يكمن في أن قاع البحر نفسه يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى، وليس في أنّ أجزاء من القاع مرتفعة وأجزاء أخرى منخفضة. ومع ذلك فإن ستراتون يأخذ بهذه الحالة الأخيرة سبباً ويفترض أن الظاهرات التي تحدث في الأنهار، تحدث في البحار أيضاً؛ فهو يرى أن المجرى البحري ينطلق من الأماكن العالية، وإلاّ لما رأى أن قاع البحر هو سبب التيار عند بزنطا؛ فهو يزعم أن قاع البونتس الإيفكسيني أعلى من قاع بروبونتيدا والبحر الذي يلي بروبونتيدا، مضيفاً في الوقت نفسه سبب هذا؛ فالأماكن العميقة في البونتس الإيفكسيني إذ تمتلئ بالطمي الذي تحمله الأنهار، تغدو أقلّ عمقاً، ولذلك تفيض المياه إلى خارج حدوده. وهو يسحب هذه الرؤية كاملة على البحر المتوسّط، ويقارنه بالمحيط الأطلسي، لأنّ قاع البحر المتوسّط يغدو بحسب رأيه، أعلى من قاع المحيط الأطلسي، فالبحر المتوسّط من وجهة نظره، يمتلئ بدوره بما تحمله كثرة من الأنهار التي تراكم

على قاعه كتلة مهولة من الطين، كما هي حال البونتس الإيفكسيني. ولكن في هذه الحال يجب أن يكون صحيحاً أيضاً، أن المجرى البحري عند أعمدة هرقل وكالبا، الذي يتّجه [إلى المحيط]، يشبه المجرى الذي يتّجه عند بزنطا [إلى بحر إيجة][8]. ولكنّني سوف أتجاوز هذه القرينة؛ إذ قد يقال، إن الظاهرة نفسها تحدث هنا [عند أعمدة هرقل] أيضاً، لكنّ المجرى يضيع في الجزر والمدّ ويصبح غير ملحوظ.

6- ولكن من الطريف أن نعرف، إنه إذا افترضنا أن قاع البونتس الإيفكسيني أدنى من قاع بروبونتيدا[9] والبحر الذي يلي البروبونتيدا، قبل أن ينشأ المعبر عند بزنطا، فما الذي أعاق امتلاء البونتس الإيفكسيني بمياه الأنهار، سواء كان قبل ذلك بحراً أو مجرّد بحيرة أكبر من بحيرة ميوتيدا؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإني أسأل أيضاً: أليس صحيحاً أن مستوى مياه البونتس الإيفكسيني وبروبونتيدا كان على نحو (طالما بقي متماثلاً) كان من المستحيل معه إرغام هذين البحرين على أن يشقّا طريقهما وينبثقا بسبب تكافؤ قوّة المقاومة وقوّة الضغط؛ ولكن عندما بات مستوى البحر الداخلي أعلى، عندئذٍ شقّت المياه الزائدة طريقها وانبثقت منه. أفلا يكمن هنا سبب اندغام البحر الخارجي مع الداخلي وتشكيل مستوى واحد (سواء كان هذا الأخير في أوّل الأمر بحراً أو بحيرة ثمّ صار بعد ذلك إلى بحر)، إثر اختلاطه بالبحر الداخلي وسيطرته عليه؟ وإذا ما وافقوني على هذا، فإن المجرى الراهن سوف يكون على هذا النحو أيضاً، لكنّ سببه لن يكون ارتفاع قاع البحر أو ميلانه، كما يؤكّد ستراتون.

7- إننا يجب علينا أن نسحب هذه الموضوعات الأساسية على البحر المتوسّط والمحيط الأطلسي، وأن نرى أن سبب المجرى، هو النهر وليس قاع البحر وميلانه. وحقيقة الأمر هي أنه بحسب الكتّاب[10] الذين ذكرناهم هنا، يبدو لنا أنه من الممكن جدّاً، حتّى لو كان بحرنا المتوسّط يوماً ما بحيرة، أنه بعد أن امتلأ بمياه الأنهار، خرج من شواطئه وسكب مياهه عبر مضيق عند أعمدة هرقل، مشكّلاً ما يشبه الشلال؛ أمّا المحيط الأطلسي فإنه إذ امتلأ بالمياه أكثر فأكثر، اندغم مع مرور الزمن مع البحر المتوسّط واتحد معه على مستوى واحد؛ وعلى هذا النحو تحوّل مستوعب البحر المتوسّط إلى بحر بفعل التأثير الغالب للمحيط الأطلسي. وعلى وجه العموم فإن مقارنة البحار مع الأنهار تناقض كلّياً علم الفيزياء: فالأنهار تجري إلى الأسفل وفق ميلان المجرى، بينما ليس للبحر ميلان. أمّا المجرى في المضائق فله سبب آخر، وليس سببه امتلاء الأماكن العميقة من البحر بالطمي النهري. فما يحمله النهر يتجمّع عند مصبّه، ومثالنا على ذلك ما سمّي "أثداء"[11] عند مصبّ نهر إيستر، والصحراء السكيثية، والساليدس (حيث التيارات الجامحة الأخرى تساهم في تشكّل

التراكمـات)؛ وكثيّـب مصـبّ نهـر فاسـيس، وسـاحل كولهيـدا الموحـل؛ ومصـبّ ثرمـودونتس وإيـريس، وثيميسـكيرا كلّهـا، وسـهل الأمـازونيس، والشـطر الأكـبر مـن سيدينا. والأمر على هذا النحو بالنسبة للأنهار الأخرى أيضاً، فكلّها يحاكي نهر النيل الـذي جعـل مـن المجـرى الممتـدّ أمامـه يابسـة؛ ولكـنّ بعضـها يفعـل ذلـك بمعيـار أكـبر وبعضها الآخر بمعيار أصغر. وبالحد الأدنى فإن تلك التي لا تحمل كثيراً من الطمـي، وبالحـد الأقصـى تلك التي يمتـدّ مجراهـا إلى مسـافات بعيـدة في بـلاد تربتها خفيفـة، إذ تستقبل كثيراً من الروافد الجامحة. وينتمـي إلى عـداد هـذه الأخيرة نهـر بيرامـوس الـذي حمل كثيراً من التربة إلى كيليكيا؛ وهو المقصود بالنبوءة الآتية:

سيشيع هذا بين الأحفاد، عندما يحمل بيراموس

الفضّي المياه حمولته إلى الشاطئ البحري ويبلغ قبرص المقدّسة.

فبيراموس يخرج من أواسط سهل كاتاون نهراً تبحر فيه السفن، ثمّ يشـقّ طريقـه إلى كيليكيا عبر ثغر جبلي ليصبّ في خليج يقع بين كيليكيا وقبرص.

8- أمّا السبب الذي يمنع حمولات الأنهار التي تتحرك إلى الأمام، من بلوغ عـرض البحـر، فهو يكمن في الخاصية التي منحتها الطبيعة لمجرى البحر، أي المـدّ والجـزر، إذ يردّ هذه الحمولات من حيث أتت، فـالبحر يشبه الكائنـات الحيّـة، وهـو يتنفّس مثلها، شهيقاً وزفيراً؛ وعلى النحو نفسه فإن البحر «في حركـة ارتدادية دائمة تنشأ منـه نفسـه، وتدور إلى الوراء من غير توقّف»[12]. ويتّضح هذا للمشاهد الواقف علـى الشـاطئ في أثنـاء اضـطراب البحـر، لأنّ الموجـة تغمـر قدميـه تـارة وتكشـف عنهمـا تـارة أخـرى، ثـمّ تعـود لتغمرهمـا مـن جديـد، ثـمّ يتكـرر الأمـر مـن غـير توقـف. ومـع اضـطراب الأمـواج عنـد الشـاطئ تنـدفع موجـة أقـوى (حتـى لـو كانـت هـي الأضـعف)، إلى الأمـام فتبعثـر كـلّ الأشياء الأخرى الموجودة على اليابسة:

... وترتفع بغتة

أمواج مسودّة غاضبة، وكثرة من الأعشاب تندفع من البحر.

(*الإلياذا* IX، 7)

وغالباً ما يحصـل هـذا وقـت هبـوب الـريح، كمـا يحصـل كـذلك وقـت هـدوئها، عندما تهبّ مـن الـبرّ. ومـع ذلـك فـإن الموجـة تنـدفع إلى الشـاطئ عكـس الـريح، كمـا لـو كانـت تتحـرّك مـع البحـر، إنهـا تشـارك في حركـة البحـر نفسـه. وهـذا مـا قصـد إليـه هوميروس إذ قال:

... تنسكب

راعدة وتتبعثر على الشاطئ مخيفة، وتقفز أعلى

من الجروف موجات كئيبـة تلفـظ زبـداً مالحاً؛

(الإلياذا IV، 425)

ويقول كذلك:

وعند المرتفعات المحيطة

تعوي الشواطئ بالأمواج التي يقذفها البحر

على اليابسة.

(الإلياذا XVII، 265)

9- ولذلك فإن لضغط الأمواج ما يكفي من القوّة لطرح الأجسام الغريبة. وتدعى هذه الظاهرة «تنقية»[13] البحر، فبمقتضاها تطرح الأمواج إلى اليابسة الجثث وحطام السفن المنكوبة. ولكنّ الجزر لا يمتلك القوة التي تمكّنه من أن يسحب إلى البحر ثانية ما كانت الأمواج قد قذفت به إلى الشاطئ، لا الجثة الميتة، ولا كسرة الخشب، ولا حتّى أخفّ جسم كان- سدادة - ، لو من أقرب الأماكن إلى البحر، حيث تكون الأمواج قد تركت مثل هذه الأجسام. وعلى هذا النحو عينه تطرح الأمواج الطمي والمياه المحملة بالطمي (وفي غضون ذلك فإن ثقل الطمي يساعد على هذا)، فيترسّب هذا على الأرض قبل أن يتسنى حمله إلى عرض البحر. وفي الواقع إن قوّة التيار النهري توقف فاعليتها على بعد قليل من مصبّ النهر. وربّما يمتلئ البحر بالطمي ابتداء من الشاطئ إذا ما تدفقت إليه حمولات الأنهار من غير توقّف. ويمكن أن يحدث هذا إذا ما سلّمنا بأن البونتس الإيفكسيني أعمق من بحر سردنيا، الذي قال عنه بوسيدونيوس، إنه البحر الأكثر عمقاً بين البحار التي قيس عمقها: ما يقارب 1000 أُورغيا.

10- ومع ذلك فإن مثل هذا التفسير يبدو أقلّ قبولاً؛ ولذلك فإنني أرى أنه من الضروري أن نضع تأويلنا لهذه المسألة في علاقة وثيقة مع الظاهرات الأكثر وضوحاً، الظاهرات التي نراها كلّ يوم، إذا صحّ القول. فالفيضانات [تظهر، كما نرى، نتيجة ارتفاع قاع البحر]، والهزّات الأرضية، والحمم البركانية، وارتفاع قاع البحر، تستدعي كلّها ارتفاع البحر، بينما يؤدّي انخفاض قاع البحر إلى هبوط هذا الأخير. لأنه من غير الممكن أن تُرفع الكتل المتوهجة من باطن الأرض وتظهر الجزر الصغيرة إلى السطح، وألاّ يحصل الأمر نفسه للجزر الكبيرة، كي تتشكّل على هذا النحو الجزر ولا تتشكّل القارّات. وعلى النحو نفسه يمكن أن تحصل هبوطات قاع البحر الصغيرة والكبيرة، إذا صحّ ما يقال، إن الهزّات الأرضية تؤدّي إلى ظهور الشقوق الفاغرة فتبتلع الأرض مناطق وقرى بكاملها، كما حصل في بورا وبيزونا وأماكن أخرى كثيرة. وفيما يتعلّق بصقليا، يمكننا أن نفترض بالدرجة عينها، أنها تعدّ كسرة من إيطاليا،

أو أن قوة النيران قذفت بها من أعماق إيتنا وأنها [على هذا الوضع] بقيت؛ والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الجزر الليبارية والبيفيكوسية[14].

11- لقد بلغت السذاجة لدى إيراتوسفين درجة جعلته، وهو عالم الرياضيات، يعزف عن الإقرار حتّى بالقوانين العلمية التي توصل إليها أرخميدس في بحثه الذي دعاه: «بصدد الأجسام التي تطفو على سطح الماء»[15]، فأرخميدس يقول في بحثه هذا، إن سطح كلّ جسم سائل، هو في حالة السكون والتوازن، كروي الشكل، ولهذه الدائرة المركز نفسه مع الأرض. ومن المعروف أن كلّ الذين يشتغلون بالرياضيات يقرّون بهذا القانون. وعلى الرغم من أن إيراتوسفين يعترف بأن البحر المتوسّط بحر متصل كامل، إلاّ أنه يرى أن له سطحاً عاماً متواصلاً غير مقطوع، حتّى في الأماكن المتجاورة تجاوراً مباشراً. وللبرهان على هذا الرأي غير المعقول يلجأ إيراتوسفين إلى سمعة البنّائين، مع أن علماء الرياضيات أنفسهم أعلنوا أن العمارة فنّ يشكّل جزءاً من الرياضيات. وعلى حدّ قوله، إن ديميتري [بوليوركيتوس] حاول حفر برزخ البيلوبونيز[16] ليفتح معبراً لأسطوله، لكنّ المهندسين- البنّائين أعاقوا تحقيق مسعى ديميتري؛ فقد أجروا قياساتهم وقالوا، إن مستوى البحر في خليج كورينثوس أعلى منه عند كينهيريوس، وإذا ما شقّ لسان اليابسة الذي يفصل بين البحرين، فإن المياه سوف تغمر المضيف الإيجيني ومعه إيجينا كلّها، والجزر المجاورة، وسوف تغدو القناة عديمة النفع. ويقول إيراتوسفين، إن هذا هو سبب قوّة مجرى تيارات المضائق، خاصة مضيق صقليا الذي تحدث فيه ظاهرات تشبه ظاهرة المدّ والجزر في المحيط؛ فمجرى التيار فيه يغيّر اتجاهه مرتين كلّ نهار وليلة، تماماً مثلما يحدث المدّ والجزر في المحيط. ويتابع إيراتوسفين حديثه فيقول، إن واقع الأمر، هو أن المدّ يتوافق ومجرى التيار الذي يندفع من البحر التيراني إلى البحر الصقلّي، وكأنه آت من مستوى أعلى، ويدعى فعلاً بالتيار «النازل»؛ ويطابق هذا التيار ظاهرة المدّ أيضاً، لأنه يبدأ وينتهي مع المدّ في وقت واحد؛ فهو يبدأ مع ظهور القمر وغيابه، ويتوقّف عندما يبلغ القمر دائرتي الطول، خاصة دائرة خطّ الطول فوق الأرض أو تحت الأرض. ويتوافق الجزر مع التيار العكسي (ويدعى بالتيار «الصاعد»)، الذي يبدأ، مثله مثل الجزر، عندما يبلغ القمر دائرتي الطول، ويتوقّف عندما يصل القمر إلى نقطتي الظهور والغياب.

12- لقد عالج كلّ من بوسيدونيوس[17] وأثينودوروس ظاهرة المدّ والجزر معالجة وافية. أمّا فيما يخصّ التيار العكسي في المضائق (الذي يخضع لدراسة معتادة أكثر عمقاً مما هو مطلوب للعمل الذي بين يدينا)، فإنه يكفي أن نقول للتوضيح [مجرى التيار في المضائق]، إنّ طابع التيار وفق كلّ نوع [من المضائق]، ليس واحداً؛ وإلاّ

لما غيّر مضيق صقليا في هذه الحالة تياره مرتين في اليوم (كما يقول إيراتوسفين)، ولما غيّر مضيق خلكيديا تياره سبع مرّات في اليوم، بينما المضيق الذي عند بزنطا لا يغيّر تياره قط، فتياره واحد، يتّجه من البونتس إلى البروبونتيدا، بل ووفق هيبارخ أن هذا التيار الأخير يتوقف في بعض الأحيان تماماً؛ ولو كان طابع التيار واحداً فعلاً، فإن هذا لن يكون هو السبب الذي يطرحه إيراتوسفين: مستوى البحر على جانبي المضيق مختلف. ولما كان لهذا مكان فيما يخصّ الأنهار أيضاً، إلاّ إذا كان لها شلاّلات؛ وفي حال وجود شلاّلات فإنها لن تجري مرتدّة، لكنّها تجري دائماً باتجاه المجرى الأكثر انخفاضاً. ويحدث هذا لأنّ التيار وسطحه مائلان. ولكن من يقول إن سطح البحر مائل، خاصة إذا ما أخذنا بالحسبان الفرضيات التي تقول، إن الأجسام الأربعة (التي نسمّيها «عناصر») لها شكل كروي[18]؟ ولذلك فإن المضيق لا يجري مرتدّاً أبداً، لكنّه في الوقت نفسه لا يقف ساكناً في مكانه من غير جريان، مع أن بحرين يتمازجان فيه؛ ولكنّ المستوى ليس واحداً [إنّما مستويان]: واحد أعلى، والثاني أدنى. فالماء ليس كاليابسة التي لأنها تتميّز بالصلابة اتخذت شكلها الذي هي عليه، ولذلك فيها منخفضات ومرتفعات ثابتة، أمّا الماء فإنه بسبب التأثير المعتاد لثقله يتحرّك في الأرض متخذاً مثل هذا السطح الذي ينسبه إليه أرخميدس.

13- ويضيف إيراتوسفين إلى ملاحظاته عن آمون ومصر، زعماً مفاده أن جبل كاسي كان يوماً ما يشاطئ البحر، وأن كلّ المنطقة التي كانت تقع فيها جيّرا كانت عبارة عن مستنقع (اتحد مع خليج البحر الأحمر)، لكنّها تعرّت لدى اتحاد البحرين[19]. إن الزعم بأن المنطقة المذكورة كانت منطقة مستنقعات، يبدو زعماً مشكوكاً فيه، لأنها اتحدت مع خليج البحر الأحمر، «فالاتحاد مع أيّ شيء» يعني «الاقتراب منه» أو «ملامسته»، وإذا ما سحبنا هذا التعبير على كتلة مائية فإنه سوف يعني أن كتلة مائية ما تمتزج بكتلة مائية أخرى. وتفسيري للأمر، يتلخص في أن المياه الضحلة «أتت» إلى البحر الأحمر عندما كان البرزخ الضيّق عند أعمدة هرقل لا يزال مغلقاً؛ وبعد أن تمزّق هذا البرزخ فقط، انسكبت المياه الضحلة نتيجة لانخفاض مستوى البحر المتوسّط إثر انسكاب المياه عبر مضيق أعمدة هرقل. ولكنّ هيبارخ الذي أوّل تعبير «اتحد مع» بمعنى «تمازج مع» (أي أنه افترض أن بحرنا المتوسّط «اندغم» مع البحر الأحمر نتيجة امتلائه ماء)، انتقد إيراتوسفين وتساءل: لماذا إذن عندما غيّر بحرنا المتوسّط مستواه بسبب انسكاب المياه عند أعمدة هرقل بذلك الاتجاه، لم يُرغم البحر الأحمر (الذي اندغم معه)، على تغيير مستواه هو الآخر؛ وأخيراً، لماذا حافظ البحر الأحمر على مستواه [السابق]، ولم ينخفض كما المتوسّط؟ ثمّ يواصل هيبارخ حديثه

فيقول، حتّى لو وافقنا إيراتوسفين، أن البحر الخارجي كلّه اندغم في كلّ واحد، فإن هذا يعني بالتالي أن البحر الغربي والبحر الأحمر يشكّلان بحراً واحداً. وبعد ذلك يضيف هيبارخ استنتاجاً مفاده، أن البحر الذي وراء أعمدة هرقل، والبحر الأحمر، وحتّى البحر المتوسّط (الذي اندغم بالبحر الأحمر)، لها مستوى واحد.

14- ويعترض إيراتوسفين على هذا، فيقول، إنه لم يتحدّث عن اندغام البحر المتوسّط مع البحر الأحمر، في الوقت الذي امتلأ فيه البحر المتوسّط وفاض، بل أكّد فقط أن البحر المتوسّط اقترب من البحر الأحمر؛ عدّاك عن هذا أنه لا يُستنتج من زعمه هذا، أن البحر الواحد المتصل له في كلّ مكان ارتفاع واحد ومستوى واحد (وهذا ينسحب على بحرنا المتوسّط مثلاً، ومن غير شك على جزئه الذي عند ليكيا وفي محيط كينكريبوس)[20]. وهذا ما يؤكّد عليه هيبارخ نفسه في مؤلّفه الذي وضعه ضدّ إيراتوسفين. وبما أن وجهة نظر إيراتوسفين هذه معروفة لهيبارخ، إذن من الأفضل أن يدفع ضدها بحجج ما خاصة به، وألاّ يسلّم مباشرة وكأن الذي يتحدّث عن بحر خارجي واحد، يؤكّد أن المستوى أيضاً متماثل في كلّ مكان.

15- بعد أن رأى في نقش سفراء قورينا المقدّسين على تماثيل الدلافين[21]، وثيقة مزوّرة، يسوق هيبارخ حجّة ضعيفة غير مقنعة ليبرهن بها على صحّة رؤيته: مع أن تأسيس قورينا يرقى إلى زمن تتذكّره البشرية، لكنّ أيّاً من المؤرّخين لم يذكر أن الكاهن المتنبّئ كان يقيم يوماً ما على مقربة من البحر. فلماذا إذن، على الرغم من أن المؤرّخين لم ينقلوا إلينا أيّ خبر عن هذا الأمر، لا يمكننا أن نستنتج وفق القرائن التي نقيم عليها تخميننا أن هذا المكان كان يوماً ما منطقة ساحلية، لماذا لا نستطيع أن نقول، إن الدلافين قد كرّست فعلاً وإن النقش قد تركه سفراء قورينا المقدّسون؟ ومع أن هيبارخ أقرّ أن البحر نفسه ارتفع مع ارتفاع قاعه وغمر المكان كلّه وصولاً حتّى مقرّ الكاهن المتنبّئ[22] (الواقع على بُعد يزيد على ثلاثة آلاف مرحلة عن البحر)، إلاّ أنه لا يجيز أن يكون البحر قد ارتفع إلى علوّ يؤدّي إلى غرق جزيرة فاروس كلّها، والشطر الأكبر من مصر، وكأن ارتفاع البحر إلى مثل هذا العلو لم يكن كافياً لإغراق هذه الأماكن أيضاً. ثمّ بعد أن يقول، لو كان البحر المتوسّط قد امتلأ فعلاً قبل أن تتشكّل الثغرة عند أعمدة هرقل، إلى الحدّ الذي أشار إليه إيراتوسفين، فقد كان يجب أن تغطي المياه قبل ذلك ليبيا كلّها، والشطر الأكبر من أوروبا وآسيا، ويضيف هيبارخ، إنه ربّما كان البونتس يمتزج في بعض الأماكن مع الأدرياتيكي. وفي غضون ذلك فإن نهر إيستر (بحسب تخمينه)، وبعد أن يتفرّع إلى فروع، يصبّ من منطقة البونتس في

البحرين معاً نتيجة لخصوصية موقع المنطقة المعنية. ولكنّ إيستر لا ينبع من المناطق البونتسية، بل على العكس، فإن منابعه تقع في الجبال الواقعة فوق الأدرياتيكي، وهو لا يصبّ في البحرين، بل يصبّ في البونتس فقط، ولا ينقسم إلى فروع إلاّ عند مصبّه. ويقاسم هيبارخ عدم الاطلاع هذا، بعض أسلافه الذين قالوا بوجود نهر آخر يحمل اسم نهر إيستر عينه، وبحسب رؤيتهم أن هذا النهر الثاني يتفرّع عن الأوّل ويصبّ في الأدرياتيكي؛ كما زعموا أن قبيلة الإيستريين أخذت اسمها من اسم هذا النهر (لأن هذا الإيستر يجري عبر منطقتهم)، وعبر هذه الطريق عادياسون من بلاد الكولهيين.

16- ولكي ننمي لدى المشتغلين في علم الجغرافيا القدرة على «عدم الاستغراب»[23] الذي تثيره لديهم التبدّلات (التي تستدعي الفيضانات وما شابهها من الظاهرات)، التي تحدّثت عنها لدى حديثي عن صقليا[24]، وجزر إيولوفيا، والجزر البيفيكوسية، من المفيد أن أسوق أيضاً بعض الأمثلة الأخرى التي تشبه هذه الظاهرات الموجودة الآن أو التي كان لها حضور في أماكن أخرى؛ لأنّ تصوّراً عن عدد كبير من مثل هذه الأمثلة يزيح «الاستغراب». فالواقعة غير المعتادة تربك الإدراك وتشوّشه، وتعرّي عدم معرفتنا بالظاهرات الطبيعة والحياة على وجه العموم، كأن يروي أحدهم، عمّا يحدث عند جزيرتي ثيرا وفيراسيا الواقعتين في المضيق بين كريت وقورينا (وثيرا هي ميتروبوليا قورينا)، وعما يحدث في مصر وكثير من مناطق اليونان المشابهة. ففي منتصف الطريق بين ثيرا وفيراسيا علت من البحر شعلة استمرّ توهجها أربعة أيام، وكان البحر في المكان يفور ويتوهّج طول هذا الوقت؛ ثمّ لفظت الشعلة جزيرة (كانت ترتفع بالتدرّج ذراعاً ذراعاً يتألف كلّ منها من كتلة تتلظّى)، امتداد دائرتها اثنتا عشرة مرحلة. وبعد أن توقّف قذف الحمم كان الرودوسيون أوّل من تشجع واقترب من المكان (لقد كان هؤلاء سادة البحر عندئذٍ)، ثمّ أقاموا على الجزيرة معبداً لبوسيدون إسفاليوس[25]. أمّا في فينيقيا، فقد ابتلعت هزّة أرضية بحسب ما أورده بوسيدنيوس، مدينة كانت تقع فوق صيدون، كما دُمِّر ثلثا صيدون نفسها؛ لكنّ المدينة لم تهلك كلّها فوراً، ولذلك لم تكن الخسائر البشرية كبيرة. وحلّ مثل هذا البلاء في سوريا كلّها أيضاً، ولكن بقوّة أضعف، ثمّ انتقلت الهزّة الأرضية إلى بعض الجزر، وانتشرت في أرجاء كيكلادا وإيبوس بحيث جفّت ينابيع أريفوسا (ثمّة مثل هذا الينبوع في خلكيديا)، لكنّها ما لبثت أن انبثقت بعد أيام عبر ثغور أخرى، وقد استمرّت الهزّة الأرضية في بعض أرجاء الجزيرة إلى أن ظهرت في سهل ليلانتس هوّة في الأرض أخذت تقذف سائلاً نارياً.

obeikandl.com

17- وبصرف النظر عن أن كثيراً من الكتّاب كان قد انتقى أمثلة من هذا النوع، إلا أننا نكتفي بالأمثلة التي انتقاها ديميتري السكيبسي. فقد ذكر مثلاً أبيات هوميروس الآتية:

وصلا معاً إلى الينابيع الوضّاءة المتدفّقة، حيث ينبثق
ينبوعان مسرعين، كسانثوس السريع الصاخب،
الذي يجري وحيداً بمياه دافئة...
لكنّ الينبوع الثاني يتدحرج بارداً في أوج الصيف.

(*الإلياذا* XXII، 147)

وهو ينصح بالاّ «يستغربن» أحد إذا كان ينبوع المياه الباردة لا يزال باقياً الآن، بينما اختفى ينبوع المياه الحارّة، ويذكر في هذا السياق ما أخبر به ديموكلس الذي يروي عن عدد من الهزّات الأرضية القوية؛ بعضها وقع قديماً في ليديا وإيونيا إبان حكم تانتالوس، ولم تبتلع القرى فقط، بل دمّرت جبل سيبيل أيضاً؛ وظهرت من المستنقعات هناك بحيرات، وأغرقت الأمواج طروادا. ويوماً ما كانت فاروس المصرية جزيرة بحرية، أمّا الآن فقد تحوّلت بطريقة ما إلى شبه جزيرة، كما هي حال صور وكلازومينا. وفي الوقت الذي كنت فيه في إسكندرية مصر ارتفع البحر عند بيلوسي وجبل كاسي وأغرق البلاد جاعلاً من هذا الجبل جزيرة، وباتت الطريق التي تمرّ على مقربة من كاسي إلى فينيقيا سالكة أمام السفن. ولذلك فإنه ليس مستغرباً أن ينفلق يوماً البرزخ الذي يفصل البحر المصري عن البحر الأحمر، أو ينخفض ويفتح مضيقاً يؤدّي إلى تمازج البحر الخارجي مع الداخلي، كما حصل للمضيق الذي عند أعمدة هرقل. وأنا كنت قد تحدّثت عن مثل هذه الظاهرات في بداية هذا المؤلَّف، فهذه الأمثلة كلّها يجب أن تجمع في كلّ واحد لكي نعلل إيماننا الراسخ بالعمل الإبداعي للطبيعة، كما بالتغيّرات التي تحدثها القوى الأخرى.

18- أمّا بيريا فإنها كانت من قبل جزيرة تقع «على الجانب الآخر من القارّة»[26]، ويروى أنها تلقت اسمها من موقعها ذاك، وعلى عكسها ليفكادا التي تحوّلت إلى جزيرة بعد أن شقّ الكورونثيون قناة عبر البرزخ، وكانت قبل ذلك رأساً بحرية. ويقال إن ليفكادا هي المقصودة بقول لايرتس:

... نيريكون مدينة على جرف الأرض الأم جندلها

(*الأوذيسا* VVIXX، 377)

إذن، لقد حفر البشر هنا قناة، وأقيمت في أماكن أخرى سدود أو جسور؛ فقد بنوا في جزيرة سيراكوزا الآن جسراً يصل المدينة باليابسة، بينما كان هنا في الماضي

بحسب إيفيكوس، سدّ حجري دعاه هذا المؤلّف «بالمنتقى». أمّا بورا وغيليكا فقد هلكتا: لقد ابتلعت إحداهما هوّة تشكّلت في الأرض، ومسحت الأخرى موجة بحرية. وعند ميثونا في خليج هرميون ارتفع نتيجة للحمم البركانية جبل علوّه سبع مراحل؛ وكان الوصول إلى هذا الجبل غير ممكن نهاراً بسبب شدّة حرارته ورائحة الكبريت المنبعثة منه، أمّا في الليل فقد كان الجبل يضيء لمسافة بعيدة، وكان يتوهّج إلى درجة جعلت البحر حوله يفور على مسافة خمس مراحل (بل امتدّ الاضطراب في البحر إلى مسافة عشرين مرحلة)، ويمتلئ بشظايا كبيرة من الصخور لا يقل حجم واحدتها عن حجم برج. وابتلعت بحيرة كوبايدا مدينتي آرنا وميديا، وكان هوميروس قد ذكر هذين المكانين في «سجلّ السفن»:

آرنا الغنية بالعنب، وميديا، ونيسّا الجميلة.

(*الإلياذا* II، 507)

ويبدو أيضاً أن بحيرة بيستونيدا وبحيرة أخرى تدعى الآن إثيتيدس، قد أغرقتا عدداً من المدن التراقية؛ ويقول بعضهم إن مدن التريرسيين جيران التراقيين، قد غرقت بدورها. كما تحوّلت إحدى جزر إيخينادا إلى منطقة قارّية. ويقولون أيضاً، إن الأمر نفسه وقع لجزر أخرى في مصبّ إخيلوي نتيجة تراكم الطمي الذي كان يحمله النهر إلى البحر؛ وبحسب هيرودوت[37]، إن بقاياها تندغم شيئاً فشيئاً بالقارّة. وثمّة عدد من الرؤوس البحرية في إيثوليا كانت فيما مضى جزراً؛ وكذلك تغيّرت أستيريا التي دعاها هوميروس أستيريدا:

على منبسط البحر المالح جزيرة صخرية
... يدعونها
أستير، هي ليست كبيرة؛ وللسفن هناك ملجأ،
تأوي إليه، يستقبلها من شاطئيه.

(*الأوذيسا* IV، 844)

لكنّها الآن لا تتوفّر حتّى على مرسى ملائم. ثمّ ليس في إيثاكا كهف الحوريات أو مغارتهنّ، كما يصف هوميروس، ولكن من الأفضل أن يُعزى هذا إلى تبدل جغرافيا، لا إلى قلّة معرفة لدى هوميروس، أو إلى اختلاق ميثولوجي وبما أن هذه المسألة ملتبسة، فإني لن أدرسها.

19- وبحسب ميرسيلوس فإن أنتيسّا كانت من قبل جزيرة، وقد حملت اسمها هذا، لأنّ ليسبوس كانت تدعى من قبل إيسّا، وأنتيسّا الآن مدينة في ليسبوس. ويرى بعضهم أن ليسبوس نفسها ليست سوى قطعة من جبل إيدا، تشظّت منه كما تشظّت

بروهيتا وبيفيكوسا من ميسين، وكابري من رأس أثينا البحري، وصقليا من منطقة ريغوس، وأوسّا من أوليميبوس[28]. وواقع الأمر هو أن مثل هذه التغيّرات وقعت قرب هذه الأماكن. ومرّة توقف نهر لادون في أركاديا عن الجريان. وبحسب دوريس أن مدينة راغي في ميديا، حملت اسمها هذا لأنّ الأرض عند البوابات القزوينية «كانت ممزّقة»[29]، بسبب هزّة أرضية ضربت المكان وامتدّت إلى مسافة كبيرة فدمّرت كثيراً من المدن والقرى، وأحدثت شتّى التغيّرات على الأنهار. وقد تحدّث أيون عن إيفبيا في دراماه النقدية «أومفالا»[30] فقال:

موجة خفيفة من يفريبوس فصلت أرض إيبيوس

عن بيوتيا، فقطعت نتوء شاطئ البحر بمضيق.

(مقطع 18. ناوك)

20- يقول ديميتري الكالاتيسي في روايته عن الهزّات الأرضية التي اجتاحت في زمن ما شتّى أنحاء اليونان، إن الشطر الأكبر من جزر ليخادا وكينيوس قد غمره البحر؛ وجفت مياه الينابيع الساخنة في إيديبسوس وثرموبل طيلة ثلاثة أيام، ثمّ تفجرت من جديد؛ وقد انبجست ينابيع إيديبسوس في أماكن أخرى غير أماكنها الأولى. وانهار في أوريوس جدار وجهته إلى البحر، إضافة إلى ما يقارب السبعمئة منزل؛ وتهدّم أيضاً الجزء الأكبر من إيخين، وفالارا، وهيراقليا التي في تراخين، وفي فالارا انهارت المباني من أساساتها. والمصير نفسه حلّ بسكّان لاميا ولاريسّا؛ وقذفت الموجة بسكارفيا من أسسها؛ وغرق في أثناء ذلك ما يقارب 1700 نسمة (أكثر من نصفهم من الفرونيسيين)؛ ثمّ ارتفعت موجة ثلاثية، فاندفع جزء منها نحو تارفا وفرونيا، والجزء الآخر إلى ثرموبل، واندفع الجزء الثالث عبر السهل إلى دافنوت في ثوكيدا؛ وجفت منابع الأنهار لعدة أيام؛ فبدّل نهر سبرخيوس مجراه وباتت دروب المشاة أماكن للسباحة؛ واندفع نهر بواغروس عبر ثغر آخر؛ ولحقت الأضرار بكثير من أجزاء ألوبا، وكينوس وأوبونت؛ أمّا أيون، وهي قلعة في أوبونت، فقد تهدّمت تماماً؛ وانكسر جزء من جدار هلاّتيا؛ وفي ألبون صعدت خمس وعشرون فتاة في أثناء الاحتفال بالفيسموفوريوس، إلى البرج ليستمتعن بالمنظر، فسقط البرج ومعه الفتيات في البحر. ويروى أنه بعد أن تشكّل شقّ في الجزء الأوسط من جزيرة أطلنطس[31] (وهي على مقربة من إيبيوس)، ظهرت هنا قناة صالحة للملاحة، وغمرت المياه بعض سهول الجزيرة إلى مسافة عشرين مرحلة؛ وقذفت الأمواج تريبرا* التي كانت تقف في ترسانة إصلاح السفن، ورمت بها عبر الجدار.

*- تريبرا = سفينة بثلاثة أنساق من المجذفين- ح. ا.

21- وبهدف دفعنا إلى الإقلاع عن المبالغة في «الاستغراب»، يضيف المؤرّخون إلى قصص التغيّرات هذه، أخباراً عن التبدلات التي وقعت نتيجة لنزوح السكّان. وهذا [عدم الاستغراب] ما يثني عليه ديموقريط[32] والفلاسفة الآخرون كلّهم؛ فهو يضع هذه الجسارة في موازاة البسالة، ورباطة الجأش، والصلابة الروحية. ويورد أمثلة على ذلك، هجرة الإيبيريين الغربيين إلى أقاليم ما وراء البونتس، وكولهيدا (وهي الأقاليم التي يقول أبوللودوروس، إن نهر أراكس يفصلها عن أرمينيا، لكن الغالب هو أن الذي يفصلها عن أرمينيا، هو نهر كير وجبال إسخين)، وهجرة المصريين إلى أثيوبيا وكولهيدا، وهجرة الإينيتيين من بافلاغونيا إلى الأدرياتيكي. وهذا ما حدث أيضاً للقبائل الإغريقية: الإيونية، والدورية، والآخية، والأيولية؛ وفي زمن ما كان الإينيانسيون، جيران الإيثوليين الآن، يعيشون على مقربة من دوتيوس وجبال أوسّا، بين البيرّيبيين؛ ولكنّ البيرّيبيين بدورهم قبائل وافدة إلى هنا من مكان ما. وعملنا هذا الذي بين يديّ القارئ، مليء بأمثلة من هذا النوع، وبعضها شائع ومعروف. ولكنّ هجرة الكاريين، والتريريين، والتفكريين، والغلاطيين، مثلها مثل أكثر حملات القادة إلى البلدان النائية (كمادي السكيثي، وتياركون الإثيوبي، وكوب التريري، وسيسوتريس، وبساميتيخ المصريين، وكذلك الفرس من قورش حتّى كسيراكس)، ليست معروفة كلّها بالقدر نفسه. وحتّى الكيميريين الذين يدعونهم التريريين (وربّما كانوا قبيلة ما من قبائل الكيميريين)، غالباً ما كانوا يجتاحون البلدان الواقعة على الساحل اليميني للبونتس، والمناطق المجاورة لهم، فيغيّرون تارة على بافلاغونيا، وتارة على فريجيا، وبحسب الروايات أنه بعد أن ارتوى ميداس من دماء الثور[33]، مضى ليواجه قدره. وعلى الرغم من ذلك وصل ليغداميدس على رأس قواته إلى ليديا، وأيونيا، واستولى على ساردا، لكنّه سقط قتيلاً في كيليكيا. لقد كان الكيميريون والتريريون يشنون مثل هذه الغزوات دائماً. ويروى أن مادي ملك السكيثيين نجح في آخر الأمر بطرد التريريين وكوب. ولتسق هذه الأمثلة هنا، لأنها تحتوي على وقائع ملائمة لكلّ علم يصف العالم على وجه العموم.

22- وأعود الآن لمواصلة ما كنت قد عزفت سابقاً عنه[34]. فهيرودوت[35] يؤكّد أنه لا وجود البتّة للهيبربورياس، ولذلك فلا وجود أيضاً للهيبرنوتيين. ويقول إيراتوسفين، إن هذا الاستنتاج السخيف يشبه السفسطة الآتية: إذا قلت إنه «لا وجود لمن يبتهج لمآسي الآخرين، لأنه لا وجود كذلك لمن يبتهج لسعادة الآخرين». ثمّ يضيف إيراتوسفين، وربّما كان الهيبرنوتيون موجودين أيضاً، وفي الأحوال كلّها فإن نوتوس لا تهبّ على إثيوبيا،

بل أبعد إلى الشمال. وبما أن الرياح تهبّ على كلّ دائرة عرض، وأن الريح التي تهبّ إلى هنا تدعى في كلّ مكان نوتوس، فإنه سيكون مستغرباً إذا ما كان ثمّة مكان مسكون ليس الأمر فيه على هذا النحو. بل إن الأمر على العكس، فليست إثيوبيا وحدها يمكن أن تكون لها النوتوس نفسها التي عندنا، بل وكل الإقليم الأعلى وصولاً حتّى خطّ الاستواء. ومهما كان الأمر، فإنه ينبغي اتهام هيرودوت لأنه زعم أن اسم هيبربورياس حملته الشعوب التي لا تهبّ بورياس في المناطق التي تقطنها. ولكن إذا كان الشعراء يستخدمون هذا التعبير غالباً بالمغزى الميثولوجي، فإنه ينبغي على من يدرسون شعرهم أن يستجيبوا لصوت الفكر الرشيد في أقلّ تقدير؛ فيقرّوا بأن المقصود «بالهيبربورياس»، هم شعوب أقصى الشمال فقط. فحدود شعوب الشمال، هو القطب الشمالي، وحدود شعوب الجنوب، هو خطّ الاستواء؛ أمّا حدود الرياح، فإنها هي نفسها.

23- بعد هذا يتحوّل إيراتوسفين إلى معارضة الكتّاب الذين يروون أشياء من الجليّ أنها مختلفة: بعضها في صيغة خرافات، وبعضها الآخر في صيغة علمية؛ وهي لم تكن تستحقّ الذكر على أيّ حال. ولم يكن على إيراتوسفين أن يأتي على ذكر هؤلاء الثرثارين لدى معالجته هذه المسألة. لقد كان ذلك هو اتجاه براهين إيراتوسفين في الكتاب الأول من «مذكّراته»[36].

الفصل الرابع

1- في الكتاب الثاني يعيد إيراتوسفين النظر بعض الشيء في الجغرافيا كلّها ويطرح موضوعاته الخاصة التي ربّما تحتاج إلى تدقيق، ويجدر بي أن أحاول عرضها هنا. فإدخاله أسس الرياضيات والفيزياء إلى الجغرافيا، أمر يستحق الثناء؛ كما يجب أن نستحسن موضوعته التي قال فيها، إنه إذا كانت الأرض كروية كالكون، فإنها مسكونة في كلّ مكان، كما تستحق الثناء أيضاً، موضوعاته الأخرى التي على مثل هذا الطراز. ولكنّ الكتّاب المحدثون يعارضونه في مسألة حجم الأرض: هل هي عظيمة كما يزعم، كما لا يعترفون بصحّة قياساته للأرض[1]. ومع ذلك فإنه عندما وضع هيبارخ خارطة الظاهرات السماوية في بعض الأماكن المسكونة، استخدم الأبعاد نفسها التي استخرجها إيراتوسفين من قياساته على خطّ الطول بين ميرويه، والإسكندرية، وبوريسفين؛ وبحسب هيبارخ أن هذه الأبعاد لا تجانب الحقيقة إلاّ قليلاً. وفيما يأتي من عرضه، تطرّق إيراتوسفين إلى مسألة شكل الأرض، وأظهر أن الأرض والقسم السائل منها، وكذلك السماء كروية الشكل، ويبدو أنه يتحدّث هنا عن أشياء لا صلة لها بموضوعه؛ لأنّ إشارة مختصرة [كما يزعم] تكفي[2].

2- وفي معرض تحديده عرض المسكونة، يؤكّد إيراتوسفين أنه من ميرويه على خطّ الطول الذي يمرّ عبرها، إلى الإسكندرية 10.000 مرحلة، ومن هناك إلى الهلليسبونت حوالي 8100، ثمّ إلى بوريسفين 5000؛ وإلى الدائرة الموازية التي تمرّ عبر فولا[3] (التي يقول بيفيوس إنها تبعد عن بريطانيا شمالاً ستة أيام إبحار وتقع على مقربة من البحر المتجمد)، حوالي 11.500 مرحلة. وعلى هذا النحو، إذا ما أضفنا 3400 مرحلة إلى البلدان الواقعة إلى الجنوب من ميرويه، لكي نضمّ جزيرة المصريين[4]، والبلاد التي تنتج القرفة، وتابروبانا، فإننا نحصل على 38000 مرحلة.

3- بيد أنه ينبغي أن نسلّم بصحّة حسابات إيراتوسفين لباقي المسافات الأخرى كلّها (مع استثناء واحد فقط): ثمّة بين الباحثين ما يكفي من التوافق حول هذه النقطة. ولكن أي عاقل يمكنه أن يقبل مسافته التي قاسها بين بوريسفين ودائرة عرض فولا؟ فبيفوس[5] الذي روى عن فولا ليس سوى كاذب مكشوف، والناس الذين رأوا بريطانيا وهيرنا، لم يأتوا على ذكر فولا، لكنّهم تحدّثوا بالمقابل عن جزر صغيرة أخرى على مقربة من بريطانيا. وبريطانيا نفسها تمتدّ على طول سلتيا بطول يماثل طول هذه الأخيرة تقريباً- ليس أكثر من 5000 مرحلة - وهي محدودة بأطراف سلتيا المقابلة لها. فالأطراف الشرقية للبلدين تمتدّ في مقابل بعضها، والغربية في مقابل الغربية؛ كما تقع الأطراف الشرقية على مقربة كافية بعضها من بعض، بحيث يبقى الشاطئان في دائرة الرؤية، أي كانتيوس ومصبّ الراين. أمّا بيفوس فيعلن، أن طول بريطانيا يتجاوز 20.000 مرحلة، وأن كانتيوس تبعد عن سلتيا مسافة عدة أيام بالبحر[6]. وتمتلئ أخبار بيفوس عن الأوستيميين وبلدان ضفّة الراين المقابلة، وصولاً حتّى سكيثيا، تمتلئ بكمّ كبير من الاختلاقات. ومن ينطق بهذا الكذب كلّه عن بلدان معروفة، ليس مؤهّلاً لقول الحقيقة عن أرجاء لا يعرفها أحد.

4- ويفترض هيبارخ وآخرون أن دائرة العرض التي تمرّ عبر مصبّ نهر بوريسفين، هي نفسها التي تمرّ عبر بريطانيا، وأساس هذا عندهم، هو أن دائرة العرض التي تمرّ عبر بزنطا، متماثلة مع دائرة العرض التي تمرّ عبر ماساليا. وفيما يخصّ علاقة الساعات الشمسية بالنسبة إلى الظلّ، وهي العلاقة التي حدّدها بيفوس لماساليا[7]، فإن هيبارخ يعلن أنه وجد العلاقة عينها في بزنطا إبان الوقت عينه من العام. بيد أن المسافة من ماساليا إلى بريطانيا لا تتجاوز 5000 مرحلة. لكنّك إذا عبرت إلى الشمال من وسط بريطانيا، فإن هذه المسافة تتقلّص إلى حدود 4000 مرحلة، وبالكاد يمكنك أن تصادف منطقة مأهولة (سوف تقع مثل هذه المنطقة على مقربة من هيرنا)؛ وعليه فإن المناطق التي تقع وراء هذه الحدود، حيث يوضّع إيراتوسفين فولا، هي أرجاء غير

مأهولة. وأنا لا أستطيع أن أرى الأسس التي استند إليها إيراتوسفين ليؤكّد أن المسافة بين دائرة العرض المارّة عبر فولا إلى دائرة العرض التي تعبر بوريسفين، هي 11.500 مرحلة.

5- وإذ أجاز إمكانية ارتكاب زلة ما لدى قياس عرض المسكونة، فقد وقع إيراتوسفين في الخطأ لدى تحديده طولها. وحتّى الكتّاب المحدثون، مثلهم مثل الأكثر اطلاعاً ومعرفة من الكتّاب القدماء، يعترفون بأن الشطر المعروف لنا من الأرض، أطول بأكثر من ضعفي عرضه. وأنا أرى أن المسافة من أطراف الهند إلى أطراف إيبيريا أكبر مرتين من المسافة من إثيوبيا إلى دائرة العرض التي تعبر هيرنا. وعلاوة على هذا فإن إيراتوسفين إذ يحدّد العرض المذكور- من أطراف إثيوبيا حتّى دائرة عرض فولا، - يضاعف طول [المعمورة] أكثر مما ينبغي، ليجعلها أكبر مرتين من العرض المذكور. وعلى أيّ حال فإنه يقول، إن الشطر الأضيق من الهند وصولاً حتّى نهر الهندوس يبلغ 16.000 مرحلة: وذلك الجزء من الهند الذي يمتدّ حتّى الرؤوس البحرية، أطول بـ3000 مرحلة؛ أمّا المسافة من هناك إلى البوابات القزوينية، فهي تساوي 14.000 مرحلة تماماً؛ ثمّ من هناك إلى الفرات 10.000 مرحلة؛ ومن الفرات إلى النيل 5000 مرحلة؛ وإلى مصبّ النيل عند كانوب 1300؛ ثمّ إلى قرطاجة 13.500 مرحلة؛ وإلى أعمدة هرقل ليس أقلّ من 8000 مرحلة؛ وهذا يزيد على 70.000 مرحلة 800 مرحلة. ويقول إيراتوسفين، إنه يجب أن نضيف على هذا، منحنى أوروبا وراء أعمدة هرقل الواقع قبالة إيبيريا ويميل نحو الغرب، والذي يمتدّ على ما لا يقلّ عن 3000 مرحلة؛ ومن الضروري أن نضيف كذلك كلّ الرؤوس البحرية، خاصة رأس الأوستيميين الذي يدعى كابيوس، والجزيرة القائمة على مقربة منه؛ وبحسب بيفوس أن آخر هذه الجزر - جزيرة أوكسيساما تبعد مسافة ثلاثة أيام بالبحر. وبعد أن يذكّر بهذه الأماكن الأخيرة (مع أنها لا تزيد شيئاً على طول المسكونة)، يضمّ إيراتوسفين المناطق القريبة من الرؤوس البحرية، ومناطق الأوستيميين، وأوكسيساما والجزر التي تحدّث عنها كلّها. (تقع هذه المناطق كلّها إلى الشمال وهي مناطق سلتية، وليست إيبيرية أو أن هذا على أرجح تقدير خيال بيفوس). ويضيف إيراتوسفين إلى الأبعاد التي ذكرناها هنا، أبعاداً أخرى: 2000 مرحلة نحو الغرب، و2000 مرحلة نحو الشرق، كي لا يكون العرض [عرض المعمورة] أكبر من نصف طولها.

6- وفي غضون ذلك إذ يسعى إيراتوسفين لكي يبرهن على صحّة موضوعته باعتبار المسافة من الشرق إلى الغرب هي الأكبر، وأن هذا «يوافق الطبيعة»، يزعم أن «المسكونة وفقاً للطبيعة، هي من الشرق إلى الغرب أطول»؛ وهو يقول: «كما كنت قد

بيّنت مستخدماً تعابير علماء الرياضيات، أن المسكونة تشكّل دائرة كاملة[8] إذا ما اتصلت نفسها بنفسها؛ إذ لولا وجود عائق مثل المدى الهائل الذي يشكّله المحيط الأطلسي، لكان من الممكن الإبحار من إيبيريا إلى الهند على دائرة العرض نفسها واجتياز الجزء الآخر من الدائرة، ما عدا المسافة التي أشرنا إليها سابقاً[9]، والتي تشكّل أكثر من ثلث الدائرة المكتملة، إذا كان محيط الدائرة التي تمرّ عبر أثينا، وهي الدائرة التي أجريت على أساسها قياس المراحل المذكورة من الهند إلى إيبيريا، فعلاً أقل من 200.000 مرحلة»[10]. ومع ذلك فإن زعم إيراتوسفين هذا غير صحيح: مع أنه يمكننا أن ننسب استنتاجات إيراتوسفين هذه إلى المنطقة المعتدلة، أي إلى منطقتنا، من وجهة نظر علماء الرياضيات (لأن المسكونة تعدّ جزءاً من المنطقة المعتدلة)، إلاّ أن الأمر بالنسبة للمسكونة مختلف، فنحن ندعو «المسكونة» ذلك الجزء الذي نعيش فيه، والذي نعرفه؛ فقد يكون في المنطقة المعتدلة عينها مسكونتان، وربّما أكثر[11]، خاصة على مقربة من دائرة العرض التي تمرّ عبر أثينا، والتي جرى مدّها عبر المحيط الأطلسي. ثمّ، بعد أن أكّد من جديد على برهانه على كروية الأرض، يمكن لإيراتوسفين أن يواجه كما في السابق، الاعتراضات نفسها. وعلى النحو نفسه تماماً لا يكف عن مجادلة هوميروس حول الموضوعات نفسها.

7- وإذ يشير بعد ذلك إلى أنه كان هناك كثير من الجدال حول القارّات، وأن بعض العلماء يفصل بينها بالأنهار- النيل وتانايس، عادّاً إياها جزراً، بينما يفصل بينها آخرون ببرازخ- البرزخ الذي بين بحر قزوين وبحر البونتس، والبرزخ الذي بين البحر الأحمر والإيكريغما[12]- ويعترفون بها أشباه جزر، بعد هذا يقول إيراتوسفين، إنه لا يرى فائدة عملية لمثل هذا البحث؛ فهذا بحسب رأيه ليس سوى عمل أشخاص يؤثرون النقاش، كما هي الحال في مدرسة ديموقريط؛ فإذا لم يكن ثمّة حدود دقيقة واضحة بين كوليتوس وميليتا (أعمدة أو أسوار حجرية مثلاً)، فإننا فقط نستطيع أن نقول: «هذه كوليتوس»، وتلك «ميليتا»، أمّا الحدود فليس بمقدورنا أن نشير إليها. وغالباً ما نشأ الخلاف على هذه الخلفية حول بعض الأماكن؛ كالخلاف الذي وقع بين الآرغوسيين واللاكيديمونيين حول ثيريا، وبين الأثينين والبيوتيين حول أوروب. وعلاوة على ذلك بحسب إيراتوسفين، أن الإغريق حدّدوا وجود ثلاث قارّات، ولم يقصدوا بذلك المسكونة كلّها، إنّما قصدوا على وجه التحديد بلادهم والأرض الممتدّة قبالتهم، أي كاريا التي يعيش فيها الآن الإيونيون وجيرانهم. ومع مرور الزمن، واستمرار تحرّكهم وتعرّفهم على عدد أكبر من البلدان، توصل الإغريق إلى التقسيم الحالي للقارّات. وينشأ سؤال، هل يا ترى كان «الناس الأوائل» الذين تقاسموا القارّات الثلاث (لكي

obeikandi.com

نبدأ الجدال ابتداء من موضوعات إيراتوسفين الأخيرة، بطرح مادّة له لا كما يفعل ديموقريط، بل بروح إيراتوسفين نفسه)، هم أنفسهم الذين سعوا إلى فصل بلادهم عن كاريا المقابلة؛ أم أن هؤلاء الأخيرين لم يكن لديهم تصوّر سوى عن اليونان، وكاريا، وشطر صغير من المناطق المجاورة لها، ولم يكونوا قد تعرّفوا على أوروبا، أو آسيا، أو ليبيا، بينما تمكن الناس فيما بعد أن يجوبوا ما يكفي من البلدان ليكوّنوا تصوّراً عن المسكونة؛ ويطرح السؤال نفسه، هل كان هؤلاء هم أنفسهم من قسم الأرض إلى ثلاثة أقسام. وكيف عجزوا عن تحديد حدود المسكونة؟ وإذا يتحدّث المرء عن ثلاثة أقسام، ويدعو كلّ قسم قارّة، فكيف، يمكنه ألاّ يأخذ بالحسبان الكلّ الذي يقسمه إلى أجزاء؟ فإذا كان وهو يقسم جزءاً ما من أجزاء المسكونة، لا يأخذ بعين الحسبان المسكونة ككل، فإنهم قد يسألونه عندئذٍ، أيّ أجزاء المسكونة، آسيا أم أوروبا أم اليابسة على وجه العموم شكّلت الجزء المعني. إن موضوعات إيراتوسفين قد صيغت فعلاً صياغة خرقاء.

8- والأكثر خراقة، هو إعلانه أنه لا يرى فائدة عملية من تحديد الحدود، ويسوق مثاله على ذلك كوليتوس وميليتا، ثمّ يلتفت إلى النقيض. ولكن، إذا كانت الحروب قد اشتعلت من أجل ثيريبا وأوروب بسبب عدم معرفة الحدود، فإن هذا يعني أن رسم حدود الأراضي له فائدة عملية ما. أو ربّما، يفترض إيراتوسفين، أن تحديد الحدود بدقّة بين البلدان، وأقسم بزيوس، أن فيه فائدة لكلّ شعب على حدة، بينما تحديد الحدود بين القارّات لا طائل منه؟ وحتّى في هذه الحالة فإنه ليس أقلّ أهمية؛ فقد تنشأ الخلافات بسبب حدود القارّات، بين الحكّام الأقوياء؛ فأحدهم على سبيل المثال، يمتلك آسيا، والآخر ليبيا، فلمن منهما تتبع مصر (ما يسمّى مصر السفلى). وإذا ما تجاهلنا هذا المثال (لأن وجوده نادر)، فإنه يجب القول، إن القارّات تقسم وفق مبدأ التقسيم الرئيس الذي ينسحب أيضاً على المسكونة ككلّ. وعلى هذا الأساس لا ينبغي علينا أن نفكر بالموضوعة التي تقول، إن الأنهار المستخدمة كحدود تترك بعض المناطق خارج نطاق التحديد، لأنّ الأنهار لا تصل إلى المحيط ولا تجعل من القارّات جزراً حقيقية.

9- وينتقد إيراتوسفين في خاتمة كتابه، أولئك الذين يقسمون البشرية كلّها إلى مجموعتين - إغريق وبرابرة، كما ينتقد أيضاً من نصح الإسكندر بأن يعدّ الإغريق أصدقاء، والبرابرة أعداء؛ ويستطرد قائلاً، إنه كان من الأفضل تقسيم الناس بحسب صفاتهم الحسنة والسيّئة، فليس هناك كثير من الإغريق الحمقى وحسب، إنّما هناك أيضاً كثير من البرابرة المثقفين (كالهندوس مثلاً، والآريان)، وعلاوة على هذا،

هناك الرومان، والقرطاجيون وتنظيم دولتهم المدهش. ولهذا السبب، يقول إيراتوسفين، لم يلق الإسكندر بالاً لمستشاريه، فقرّب إليه ما استطاع من الشخصيات المشهورة ومنحها عطفه وإحسانه، كما لو أن أولئك الذين قسموا الناس فذّموا بعضهم، ومدحوا الآخرين، قد فعلوا ذلك لسبب ما مغاير، وليس لأنّ الشرعية، ومبدأ الدولة، والجدارة، التي ترتبط بالتربية والعلوم، هي السائدة لدى بعض الشعوب، وأن العكس تماماً هو السائد لدى ما تبقى من الشعوب؛ ولكنّ الإسكندر لم يتجاهل مستشاريه، وأخذ بآرائهم وتصرّف بما يتوافق وهذا، وليس العكس، لأنه كان يحسن تقدير النوايا الحقيقية لأولئك المستشارين.

obeikandl.com